

روايات مصرية للجيب
31
ما وراء الطبيعة
أسطورتها ..!

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

٦٢١١٧٩



د. أحمد خالد توفيق

أسطورتها ..!

أسطورتها أنها تعود دومًا في وقت لاتتوقعه ، لتواجهك بكارثة ليست في الحسبان ، وتطلب حلاً ليس في إمكانك ، لتدرك بعدها أنك في مأزق مخيف ، وأنها جاءت معها بقاتل خارق للعادة .. أسطورتها أنها تعرف أنك لن تستطيع التملص ، ولا انتحال الأعذار !

الثمن في مصر ١٥٠ مـ
ومايعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

العدد القادم :
أسطورة رفعت

31

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورتها ..!

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايـــات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصـرى مـائة فى المـائة
لا تشـوبه شبهة الترجمة أو الاقتبـاس
أو النقـل عـن أية قصص أوربيـة .

●

إشـــراف

الأســتاذ/ حمـــدى مصطفـــى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس - 202/2596650 ج.م.ع.

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

31

أسطورتها ..!

بقلم :

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

مقدمة

لقاء جديد لنا .. العجوز (رفعت إسماعيل) بقصصه الكئيبة ، وأصدقائه الشباب بعيونهم المتسعة وفضولهم النهم إلى كل جديد ..

لقد جلسنا ثلاثين مرة نصغى لقصص .. ونرى صورًا .. ونستمع إلى شرائط تسجيل .. وفى كل مرة كان هدفنا هو الاستمتاع .. الاستمتاع النظيف بلا تنازلات .. ضحكنا مرارًا .. وبكينا مرارًا .. وارتعبنا مرارًا .. لكننا ـ وهذا هو المهم ـ أحببنا هذه اللحظات ..

الآن دعونا نبدأ قصة أخرى ..

يبدو أننى ـ بعد حلقة الرعب الثالثة ـ قد نلت قسطًا لا بأس به من الراحة .. راحة تجعل مفاصلك تتصلّب .. وتجعل عقلك كقدمين فارقتا الحذاء بعد يوم شاق .. إنهما تنتفخان .. تنبضان .. ثم يغدو من المستحيل إعادتهما للحذاء بعد ذلك ..

حسن .. سأحاول أن أحشر عقلى فى حذاء القصص مهما كلفنى الأمر ..

أين كنا توقفنا ؟

عند العام ١٩٦٩ بعد قصة عدو الشمس ، وهذين الكائنين القادمين من عالم الأطياف ..

يعود الزمن إلى دورته التقليدية .. وأعود أنا لألملم ذكرياتى مع وجه فارقته طويلاً ، لكنه لم يتزحزح عن عرش أحلامى قط ..

إنها لا تشيخ أبدًا كأنما خُلقت من فورها ..

إنها تملك الجديد دائمًا ..

إنها تعرف كل شىء عنى ربما أكثر منى ....

إنها الأمّ الأبدية .. والصديقة الأبدية .. والأخت الأبدية ..

إنها الحبّ الذى لا ينتظر حتى نسميه حبًّا لأنه هنالك دائمًا ..

إنها دائمًا أخرى .. ودائمًا هى .. فكيف ؟!

تلك هى .. أسطورتها ...

★ ★ ★

١ ـ إنَّها قادمة !

أسطورتها أنَّها هى ..

★ ★ ★

إنه أكتوبر ..

يوجد ألف سبب يدعونى لكراهية الربيع .. آخرها أنه ينذر بمرض شاعرى الاسم لا نجده فى فصل آخر : الرمد الربيعى .

لهذا أحب الخريف .. ولو تغاضينا عن حقيقة أنه لا يوجد رمد خريفى ؛ يمكننا القول بأنّه الفصل الوحيد الذى له مذاق الحزن المرهف .. والرقة الشفافة .. ذلك المذاق الذى لا نجده فى فصل آخر .

فى ذلك الصباح لم يكن لدىّ ما أفعله .. كنت فى إجازة قصيرة ، وقد قرأت كومة الخطابات التى وجدتها فى بريدى .. ربما باستثناء خطابين أو ثلاثة ..

لهذا قررت أن أعنى بالشقة قليلاً .. لأحولها من عرين خرتيت ـ لو كان للخرتيت عرين ـ إلى شىء صالح للاستعمال الآدمى ..

هناك امرأة في الخمسين من عمرها تـأتى لشـقتى مرتيـن أسبوعيًا لتنظفهـا .. اسـمها (أم أحمـد) أو (أم حسن) أو أمّ شىء ما .. المهم أنهـا شـمطاء .. وأنهـا تسـرق السمن من البَرْطَمَان .. ثم - الأسوأ - لا تأتى بانتظام .. أحيانًا تتغيب عنى شهرًا .. لكنها على كل حال لا تموت أبدًا ..

يصر (عزّت) على تسميتها (مدبرة المنزل) .. وهو اسم يليق بلورد (ماونتباتن) لكنه لا يليق بـ (أم حسن) بالتأكيد .. وعلى كل حال لا يجب أن ننسى أن (عزّت) هو من أوجدهـا لـى .. وهى تسرق السمن من شقته مثلما تفعل معى ..

لـم تـأت أم (عـوض) هذه .. فهـل أتـرك شـقتى وحالها ؟

بالتأكيد لا .. شرعت أمسح البلاط وأغسل الملاءات ، وأبعثر الغبار بشكل متجانس بحيث لا يحتشد فـى موضع بعينه ..

كذلك أشعلت الموقد فطهـوت بعـض الباذنجـان ، وغليت اللبن أعنى أننى وضعته ليغلى ..

وهنا أعود فأقول : إن اللبن سائل مُلهم .. ألا ترى

هذا معى ؟ ما إن تضعه على النــار حتــى تتداعــى ذكرياتك .. وتخطر لك آلاف الأفكار العبقرية .. وتتذكر مواعيد لم تفِ بها .. ومكالمات هاتفيـة لـم تجرِهـا .. المهم أن كل شــىء يدعوك لنسيان اللبـن الـذى على الموقد .. وتفيق لرشدك لتجـد البركـان الأبيض يثـور بحممـه .. وتـدرك أنـك تـأخرت ثـانيتين مصـيريتين .. لكنى سآخذ حذرى هذه المرة ..

دعنا من كل هذا .. ولننتقل إلـى الجزء المهـم فـى الموضوع ..

قلت إننى وجدت خطابين فى بريدى بقيا من كومـة الخطابـات التـى قرأتهـا .. وكـان أحدُهمــا بخــط أنيــق أعرفـه جيدًا .. أمـا الآخـر فكـان بالإنجليزيــة .. ولــم احتج إلى كثـير ذكـاء كـى أتذكـر اليـد التـى كتبـت هذا الخطّ .. إنه خط (ماجى) !

سقط قلبى فى قدمى .. وشـعرت بِقُشَـعْرِيرة تجتـاح جسدى ..

خمسةُ أعوامٍ كاملةٍ يا (ماجى) .. لم أعرف عنـك شيئًا على الإطلاق ..

كنت هناك دائمًا لكن دون أن أراك أو أسمعك ..

و .. وفتحت الخطاب ....

« إنفرنسشاير فى ١٩٦٩/٩/١٢

عزيزى رفعت :

سرّنى أن أعرف أنك بخير .. وأنك مازلت تلعب دور صائد الخزعبلات الذى يُفترض أنك تلعبه .. أرسلت هذا الخطاب إلى عنوان عملك وعنوان دارك آملة فى أنك لم تغيّر كلا العنوانين .. أعتقد أن كليهما صحيح .. فأنت لست من النوع الذى يستقيل من مهنته .. أو يثرى فجأة فيبتاع دارًا جديدةً ..

ما أردت قوله هو أننى أعدّ لك مفاجأة رهيبة لكنها لن تقضى عليك .. أنا قادمة إلى مصر فى زيارة سريعة يوم ٦٩/١٠/٢٤ .. أرجو أن تتصل بى لتعرف رقم الرحلة وموعد وصولها ، فأنا لا أعرف رقم هاتفك ..

حتى نلتقى احتفظ بنفسك حيًّا .. أعتقد أننى أستحق مجاملة بسيطة كهذه .

بإخلاص : ماجى ماكيلوب »

ونظرت غريزيًا إلى نتيجة الحائط ..

إنه ١٩ أكتوبر .. أى أن (ماجى) ستكون هنا بعد خمسة أيام ..

ابتلعت بعض (النتروجلسرين) كى لا أموت .. إن أغنية (أم كلثوم) الرائعة (أغدًا ألقاك ؟) تعبر خير تعبير عن الموقف .. وكيف يتحول الشوق إلى رهبة .. وإلى رعب يفوق رعب كل المذعوبين مجتمعين ..

وهنا حدثت الكارثة .. رائحة اللبن المحترق تفعم أنفى .. لقد سال فأغرق الموقد ولم يعد باقيًا منه فى الإناء ما يكفى لإشباع قطة ..

ألم أقل لكم إنه سائل مُلهم سخىّ بالأفكار ؟

تركت كل هذا وارتديت ثيابى واتجهت إلى (السنترال) ، وانتظرت دهرًا حتى جاءت مكالمتى مع (انفرنسشاير) ..

كان هذا هو صوتها .. يتسرب عبر سلوك الهاتف وعواصف الكهرباء الإستاتيكية .. لكنه هو .. هو ..

- « (ماجى) .. أنا .. »

- « لا تطل الكلام يا مسكين فأنا أعرف سعر المكالمات .. سأصل يوم ٢٤/١٠ فى السادسة مساءً .. على الرحلة رقم (....) هذا كل شىء .. وداعًا! »

وانتهت المكالمة .....

مازالت عملية جدًّا هذه الفتاة ..

★ ★ ★

كان عليّ أن أقوم بعدة أشياء فى وقت واحد :

(ا) توجهت إلى فندق (....) فحجزت غرفة باسمها .. إن العبء المادى لساحق على كاهلى .. لكن ليس بالمال وحده يحيا الإنسان ..

(ب) ذهبت لأبتاع بذلة أنيقة وربطة عنق وقميصين .. أعرف أنَّ البذلة الزرقاء ما زالت تؤدى عملها وتجعلنى فاتنًا .. لكنها بدأت تبلى قليلاً .. ألا ترى هذا معى ؟ ثم إننى كنت أرتديها فى زيارة (إسكتلندا) إياها منذ خمسة أعوام ..

(جـ) ذهبت إلى الحلاق ليهذب لى الشعر الثائر المتبقى على جانبى جمجمتى .. ولا بأس بحلاقة ذقنى عنده ..

ورحت - فى تعاسة - أرمق هذا الوجه المربع الذى يرمقنى بتعاسة مماثلة من جانب المرآة الآخر .. لا شك أن الوقت أضيق من إجراء جراحة تجميل .. أو زرع شعر ..

ولكن لماذا أقلق ؟ (ماجى) قالتها يومًا :

- « إن المرأة تحب رجلها ليس لأنه أقوى الرجال ولا أوسمهم ولا أغناهم بل لأنه هو .. هل تفهم هذا ؟

لأنـه هو بضعفه وقوتــه .. بهزالــه ورَبْـوِه وضيــق شرايينه التاجية .. »

يا سلام ! ما أبدعك يـا (مـاجى) أيتهـا الفيلسـوفة الجميلة .. هذا هو نوع الآراء الذى يروق لى ..

من الغريب - صدق أو لا تصدق - أننى حين فكرت فى هذا شعرت أننى أجمل .. وجهى فـى المـرآة صـار أكثر قسامة .. يبدو أن (إيليا أبو ماضى) كـان علـى حق .. ويبدو أن القبح هو شعورك بالقبح فعلاً ..

(د) ولا باس طبعًا من إعداد جولة سياحية لا بأس بها .. الأهرام .. المتحف المصرى .. الإسكندرية .. كـلاّ .. مـيزانيتى لا تحتمـل (الأقصـر) و(أسـوان) أرجـوك .. فلنتظـاهر أمـام (مـاجى) أنهمـا غـير موجودتين .. أو أننى لم أسمع عنهما قط ..

لكنى لم أكف عن التساؤل بينما أعدّ كل هذا ..

لماذا هى آتية ؟ لماذا بدا خطابها مقتضبًا وحديثها متحفظًا ؟

هل كل شىء على ما يرام حقًا ؟

لقد مات أبوها - السير (جيمس ماكيلوب) - منـذ عامين .. قرأت الخبر فى إحدى دوريات أمراض الدم ..

وعرفت بعدها أننى لن أرى أستاذى العظيم أشيب الشعر كثّ الحاجبين طويل السالفين أبدًا .. الرجل المهذب الأرستقراطى الذى يفيض كبرياءً وعلمًا ..

حاولت الاتصال بهم مرتين .. وأرسلت خطابًا لا أدرى إن كان قد وصل أم لا .. ثم نسيت الأمر تمامًا .. بالتأكيد (ماجى) أيضًا قد صارت أفضل ..

هل تزوّجتْ ؟

معلوماتى تقول إن هذا لم يحدث .. يبدو أن خطبتها قد فشلت لأسباب لا تتعلق بحسدى وحزنى .. وهذا يعنى ببساطة أنها وحيدة مثلى .. وحيدة كسمكة (المقاتل السيامى) أو كأفعى فى قبو قصر ..

آمال مجنونة تتواثب فى صدرى ..

إن الغدّ يحمل وعودًا كثيرة ..

★ ★ ★

ـ « ولد يا (إسماعيل) .. لماذا دققت جرس الأستاذ (عزّت) ؟ أنت تعرف أنه ينام حتى الظهر يوميًّا ؟ »

تقولها مدام (ماجى) بلهجتها العربية المبعثرة، وهى تقف بمريولة المطبخ على الباب .. ودموع

ومخاط البصل الذى كانت تقشره يغطى وجهها ..
فيقول لها (إسماعيل) الصغير وهو يزيح خصلات
شعره الأشقر عن وجهه :

- « لأن شكله مخيف يا مامى .. أحيانًا أحسبه آكل
بشر .. »

- « لا عليك .. أبوك نفسه ظن ذات الشىء
يومًا ما .. تعال هنا .. »

ابنة السير (جيمس ماكيلوب) تقشر الكوسة
وتخرط البصل ، بانتظار عودة زوجها المحبوب
(رفعت إسماعيل) من العمل ..

و ....

★ ★ ★

وأفيق من أحلام اليقظة .. ربما بفعل هذه البعوضة
التى لسعت قفاى .. فأعود إلى وعيى وإلى تساؤلاتى ..
لماذا - بحق السماء - قرّرتْ أن تزور مصر فجأة ؟!
ولم أكن أعرف بالطبع أن زيارتها تحمل لى أيامًا
رهيبة ..

أيامًا جديرة بأن أحكيها لكم ....

★ ★ ★

٢ ـ إنّها هنا !

أسطورتها أنّها تتبدل فى كل ثانية كالشلال ..

★ ★ ★

وفى المطار وقفت محاولاً منع نفسى من الفرار كالأرانب ..

فى البدء لمحت العربة التى يعلوها تلّ من الحقائب .. ثم لمحت شعرًا أشقر ثائرًا وعوينات سوداء .. ثم بدأت أدرك أننى أرى فتاة هشة رقيقة يمكنها أن تمشى فوق العشب دون أن تثنى منه عودًا واحدًا ..

واحدة فقط فى العالم ينطبق عليها هذا الوصف ..

هرعت مرتبكًا لأعاونها .. لكنها قالت فى لهجة رسمية متعجلة وهى تواصل دفع عربتها :

ـ « هاى (رفعت) ! هل سيارتك قريبة ؟ »

توليت لاهثًا دفع العربة ، وأشرت لها إلى اتجاه ما ..

ـ « كـ .. كيف حالك يا (ماجى) ؟ »

ـ « بخير يا (رفعت) .. بخير .. »



ثم بدأت أدرك أننى أراها فتاة هشة رقيقة يمكنها أن تمشى فوق العشب دون أن تثنى منه عوداً واحداً . .

واستقرت جوارى فى السيارة ..

ما أغرب السنين ! كلما لاقيت (ماجى) شعرت بأننى أبدأ من جديد .. فها هى ذى سائحة شقراء أخرى لا تمت لى بصلة .. متحفّظة قليلاً .. باردة إلى حدّ كبير .. هل هذه ذات الفتاة التى توسلت إلَىَّ كى أبقى معها ، حين وقفنا ذلك اليوم فى قصر أبيها أنتظر الرحيل معه إلى (إدنبرة) ؟

لحظات من الصمت وهى ترمق معالم طريق المطار من النافذة ..

هنا أدركت أن جزءًا لا بأس به من برودها ناجم عن هذا الاختراع المقيت : المنظار الأسود .. فهو يصلح لضابط يريد أن يرهب اللصوص .. لكنه لا يناسب صديقًا يرمق صديقه ...

- « (ماجى) .. هلا خلعت هذه ؟ إنها تجعلك سمجة قليلاً »

نظرت لى هُنَيهة ثم مدت يديها إلى وجهها لتنزعها ..

عندها عرفت أننى ظلمتها ..

لم تكن ترتديها على سبيل (الألاطة) إن جاز لى التعبير ..

كانت ترتديها لأن مقلتيها حمراوان بلون الدمَ ..

★ ★ ★

مرّ النادل قرب مائدتنا ، فرفعت يدى فى أناقة كى يأتى .. لكنه لم يفعل .. طرقعت بإبهامى وسبابتى فلم يستجب ..

هذه هى مشكلتى الدائمة .. إنهم لا يعبئون بمناداتى إيَّاهم أبدًا .. أصدرت وسوسة من بين أسنانى فاستدار فى ضيق .. وجاء إلىّ :

- « ماذا تريد ؟ »

- « كوبًا من الليمون .. لا فليكن كوبين .. »

- « حسن .. لكن تذكر أننى لست قطة لتنادينى بـ(بس بس) هذه ! »

وانصرف تاركًا أذنىّ محمرتين خجلاً .. ولم تلحظ (ماجى) الموقف لحسن الحظّ لأنها كانت تفتح وتغلق منظارها مرارًا شاردة الذهن ..

سألتها بعد برهة :

- « هل هو (إيوان فريزر) ؟ »

نظرتْ لى بعينين توشكان على الإمطار من جديد .. وغمغمتْ :

- « نعم .. كان دائمًا حولى يحاول أن يثبت لى أننى أحتاج إليه .. وفى النهاية قبلتُ خطبته .. لكن انطباعنا الأول عن الناس يكون صادقًا غالبًا .. إن (فريزر) مهرج كبير يبهرك فى أول لحظة ثم لا تلبث أن تجده خاويًا ونذلاً .. وكان لا بد أن ننفصل .. »

- « لم أتصوّر لحظة أنه هو .. »

- « ولا أنا .. لكن الوحدة والخوف من الغد يجعلان المرء يقارف أمورًا غريبة .. »

ثم جاء الليمون .. فجرعتْ جرعة كبيرة من كوبها .. وأعادته إلى المنضدة فأحدث قرقعة عالية .. وأردفتْ :

- « كنت غارقة فى أبحاثى .. وفى لحظة تُوفِّى والدى وصرت وحيدة جدًّا .. وبالطبع لم يتفضل السيد (رفعت) بالاتصال بى أو مراسلتى طيلة هذه السنين .. »

للمرة الثانية احمرّت أذناى .. وقلت مبررًا :

- « كان خطابك الأخير جافًّا .. قلت إنك خُطِبْتِ .. وشعرت أن هذا يعنى ألاَّ مكان لى فى حياتك بصورة مهذبة .. إلى جانب أننى شعرت أنك تتشفين بشكل ما .. لا أظن أنك تلومينني على هذا .. »

ـ « قلت إنك ستذكرنى أبدًا .. »

ـ « وحتى تحترق النجوم .. وحتى ...... »

وهنا انهمر المطر من عينيها من جديد ..

عزيزتى (ماجى) .. لقد اعتدت أن تكونى أنت الطرف الأقوى الذى يعرف ما ينبغى عمله .. إن روحك مثقلة بالأحزان والحيرة الآن .. وهذا يجعلنى فى حالة عجز وارتباك .. حين يُطالب الآخِذ أن يعطى تتملَّكه الرهبة .. منذ متى تطلب الشمس منا الدفء ؟!

وعدت أتأملها ..

ذات الشعر الأشقر الذهبى .. ذات العينين الزرقاوين الواسعتين .. لكن شيئًا ما لم يعد كما هو .. ولا أعنى بذلك أثر السنين . فالزمان يكتفى بالنسبة لـ (ماجى) بحمايتها .. بإزالة الغبار عنها .. وربما بعد ثلاثين سنة يمكن أن تبدو كامرأة فى الأربعين من عمرها .. ربما ..

بعد هُنَيهة سألتنى :

ـ « هلا رحلنا ؟ »

أخرجت ورقة عملة دسستها تحت الكوب .. ونهضتُ :

ـ « الحق معك .. لا بد أن السفر قد أنهكك .. »

وفى عفوية تأبطت ذراعى ونحن نغادر المكان .. شعرت بحنان غامر يغرق روحى .. ما زال بوسعى أن أمنح هذه الشمس الكاسفة بعض الدفء ..

- « هل سأقيم فى شقتك ؟ »

ابتسمتُ فى سخرية .. وقلتُ :

- « نحن فى مصر لا (إدنبره) لقد حجزت لك غرفة فى فندق .. »

- « ومتى أراك ثانية ؟ »

أعطيتها رقم الهاتف .. ووعدتها أن أمر لآخذها فى العاشرة صباحًا بعد ما تقضى ليلة مريحة .. وغدًا ربما تكون أفضل حالاً ..

وفى بهو الفندق قالت لى وهى تداعب مفتاح غرفتها بأناملها :

- « لا تتأخر يا (رفعت) .. فأنا بحاجة إليك .. »

لن أتأخر يا (ماجى) .. يمكنك أن تراهنى على ذلك ..

★ ★ ★

الأهرام تتوهج فى ضوء شمس الخريف ساحرة الجمال .. حولنا يحوم المترجمون وأولئك الفتية بخيولهم وجمالهم ..

ـ « جمل يا أستاذ ؟ حصان يا أستاذ ؟ »

شعرها يتوهج في الشمس هو الآخر كالذهب .. وقد احمرّ خدّاها انفعالاً وإرهاقًا وسرورًا .. ابتلعت ريقى وغمغمت : (سبحان اللّه !) .. ورحت ألهث فوق الطريق الوعر المنحدر إيَّاه ..

سألتنى فى حماس وهى ترفع الكاميرا إلى عينيها :

ـ « أين (الكرنك) يا (رفعت) ؟ أريد أن أراه ! »

أعوذ باللّه ! ما الذى ذكرها بما كنت أحاول ألا أذكرها به ؟ إن نشرات السيّاح هذه تثرثر أكثر من اللازم ..

ـ « (الكرنك) من الصعب زيارته الآن .. إن السدّ العالى كما تعلمين .. »

ـ « كنت أظن أن معبد (فيلة) هو الذى .... »

ـ « بل (الكرنك) .. صدقينى .. من المستحيل أن نزور (الكرنك) لأسباب قوية »

وهكذا استرحت من هذه السيرة .. لكنها عادت تتحدث عن (الرامسيوم) وعن أديرة الصحراء .. مشكلة مصر هى أنها تعجُّ بالآثار حقًّا .. ومن المستحيل أن تتحمل ميزانيتك رؤية كل هذا ، ما لم تكن مليونيرًا أو مرشدًا سياحيًّا ..

المهم أن اليوم مرّ بسلام والحمد للّه ..

وجلسنا نرمق الشمس الغاربة كأنه مشهد من فيلم عربى سخيف .. لم أنس لحظة أننى لا أبدو كفرسان الأحلام .. لكن من يملك إبداء هذا الرأى مادمنا سعيدين أنا وهى ؟

سألتنى عن أحوالى طيلة هذه الأعوام .. فحكيت لها عن .. عن (هويدا) .. وعن كل الأهوال التى عشتها منذ حاصر (الزومبى) سيارتنا إلى أن غادر (آشتا) منزلى .. وهى تستمع بين مصدق ومكذب .. ثم قالت وهى ترمق الشمس :

ـ « سمعت عما حدث لـ (تابيثا) وزوجها .. »

ـ « حاولا أن يخدعانى بقصة ملفقة عن رأس (ميدوسا) .. لكنى لم أكن سهل الهضم .. »

قالت وقد صارت الشمس قرمزية تمامًا :

ـ « كانت شيطانة موهوبة .. فليرحم الرب روحها ! »

اتسعت عيناى دهشة .. ودنوت منها أكثر لأحسن الإصغاء :

ـ « ماذا قلت ؟ »

ـ « ليرحم اللَّه روحها .. »
تلمست أصابعى إطار عويناتى .. وسالتها فى حيرة :
ـ « هـ .. هل أعدمها اليونانيون ؟ »
ـ « لا .. بالطبع .. لقد ماتت فى السجن .. »
ماتت ؟ غريب هذا .. لكن الشباب يموتون كالكبار .. لا غرابة فى هذا ..
ـ « هـ .. هل كانت مريضة ! »
ـ « بالطبع لا يا (رفعت) .. (تابيثا) كانت بصحة جيدة تمامًا .. لقد وجدوها مقتولة فى زنزانتها .. يبدو أن هناك من يهوى فصل الرءوس عن الأعناق .. وقد وجدها مناسبة لهذه الهواية ! »
ـ « يا للهول ! من هو ؟ »
هزّت رأسها .. كانت الشمس قد صارت زرقاء داكنة .. وثمة نجمة تلتمع فى الأفق الشرقى معلنة ملكوت الظلام ..
قالت (ماجى) بصوتها الهادئ :
ـ « لا أحد يعرف .. هذا هو اللغز الذى جعلنى أفرّ من (داندى) .. بل وأفرّ من (أوروبا) كلها .. إننى أحاول إنقاذ عنقى الخاصّ . »

الآن صار وجهها بقعة زرقـاء لا تبيـن ملامحهـا .. لكنى أتصورها ..

ـ « (ماجى) .. هل تعنين أنك فى خطر ؟ »

ـ « نعم يا (رفعت) .. خطر داهم .. »

الآن لم تعد هناك شمس ولا شفق ..

فقط ظلام كئيب ..

ظلام ينذر بالويل ..



٣ - حكاية غريبة بعض الشئ ..

أسطورتها أنها فى غموض الليل ..

★ ★ ★

فى هذه المرة جلسنا فى أحد المقاهى السياحية فى حىّ الحسين .. المقهى دافئ من الداخل يعبق برائحة (التمباك) العطرة .. وثمة شىء ناعس فى الجو يغريك بأن تغمض عينيك وتنام ..

هناك مطرب يضع ساقًا على ساق ، وقد أراح العود على فخذه ، وراح بصوت مشروخ بعض الشىء يدندن أغنية لـ (أم كلثوم) :

- « الليل وسماه .. ونجومه وقمره .. »

نظرت (ماجى) إليه ورشفت جرعة من الشيكولاتة الساخنة .. وسألتنى وهى تلعق شفتها العليا :

- « ماذا يقول ؟ »

- « يتحدث عن الليل والقمر وأشياء من هذا القبيل .. إن الترجمة تفسد الأمر برمته .. فأم كلثوم مزيج

خاصّ لا يفهمه سوى عربى .. مثلها مثل صوت الشيخ (رفعت) قبل الإفطار فى (رمضان) .. وصوت التكبير صباح العيد .. ومذاق الشاى بالنعناع فى الحقل عند الغروب .. »

نظرت لى غير فاهمة .. لكنها تبذل جهدًا لا بأس به كى تفهم ..

سألتها وأنا أرشف القهوة :

ـ « والآن ما هو الخطر الذى تتحدثين عنه ؟ »

قالت وهى تدفن وجهها فى قدحها :

ـ « لم تكن (تابيثا) هى أول من مات .. ولن تكون الأخيرة .. »

ـ « ماذا يدعوك للظن ؟ »

ـ « إنها تلك المكالمات الهاتفية .. لقد بدأت بعد وفاة أبى .. كنت أحيا وحدى فى قصر الأسرة فى (إنفرنسشاير) .. الوريثة الأخيرة وآخر سلالة (ماكيلوب) .. إن من سوء الطالع أن هذه الأسرة العريقة التى تعود إلى عصر (ماكبث) تنتهى بى أنا .. ولن يحمل أحد على الأرض اسم (ماكيلوب) من بعدى ..

أنت تعرف أن القصر واسع ومخيف .. وقد فعلت الوحشة مفعولها فى حالتى النفسية .. فصرت أغادر القصر أكثر الوقت .. أو أقيم فى غرفتى لا أبرحها .. إن (جراهام) رئيس الخدم يعرف كيف يدير الأمور بحنكة .. ومعه مسز (أوركهارت) مديرة القصر وهى إنسانة كريمة المنشأ .. لكنى لم أستطع قط أن أشعر براحة معهما ..

كان هناك حل واحد هو أن أتزوج .. لكن الأمر لا يتم بالضغط على زرّ .. ثم إننى لو أردت مائة زوج على شاكلة (فريزر) لوجدت .. فالكل يحلم بميراث أسرة (ماكيلوب) الأسطورى الذى هبط على الوريثة البلهاء .. إن العثور على زوج ليس نذلاً وليس لصًا وليس مدعيًا وليس رقيعًا وليس مغرورًا لأمر عسير بعض الشىء فى هذا العالم » .

ـ « أنا أعرف واحدًا ! » .

قلتها فى سرور وقلبى يخفق .. لكنها لم تعر كلامى اهتمامًا وأردفت :

ـ « .. هكذا مضت حياتى .. كنت أراسل أصدقائى القدامى .. وكونت صداقات جديدة .. ربما أهمها مع مهندس يُدعى (أندرو) .. (أندرو ماكفرسن) » .

ـ « كل الإسكتلنديين اسمهم (أندرو) .. ولا أدرى كيف تعرفونهم من بعض ؟ » .

ـ « كما نحسب نحن الغربيين أن كل العرب اسمهم (محمد) .. إنه اسم شائع لا أكثر .. إن (أندرو) رجل لطيب المعشر ومهذب .. لكنه لا يرغب فى الزواج .. على الأقل منى .. هناك طبيب يُدعى (ويليام) وعارضة أزياء اسمها (إلسترى) .. وهى مجموعة لا بأس بها .. لكن اليوم ينتهى على كل حال ولا بد أن تعود إلى قصرك الخاوى العامر بالأشباح .. لتنام فى فراشك البارد وتقرأ قصة لـ (ديكنز) حتى يغلبك النوم ، ويسقط الكتاب من يدك » .

ما زال صوت المطرب يتموج فى أرجاء المقهى :

ـ « والهوا .. آه منه الهوا !

كل هذا كأنه حلم .. أحقًا هى معى هنا فى عالمى الخاصّ ؟ أشياء كثيرة أريد قولها لكنها تبخرت .. عواطف كبيض فى كيس ورقى .. هشم بعضه بعضًا .. فلم يبق من عواطفى إلا مزيج لا أفهم ما هو ...

و(ماجى) عملية جدًّا تواصل الكلام بذات النغمة التقريرية :

- « كانت حياة هادئة على كل حال .. لكن ... » .

★ ★ ★

« يا من هى أرق من نسمة المساء .. أنت جمعت جمال ألف نجمة ! » .

(كرستوفر مارلو)

★ ★ ★

« تعطر أيها العطر بلمس يديها ! » .

(الرافعى)

★ ★ ★

« شكرًا لحبك فهو مروحة .. وطاووس .. ونعناع .. وماءْ ..
وغمامةٌ ورديةٌ مرّت مصادفةً ..
بخط الاستواءْ ! » .

(نزار قبانى)

★ ★ ★

هى الشمس مسكنها فى السماء
فعـزّ الفـؤاد عـزاءً جميـلاً
فلن تستطيع .... »

★ ★ ★

ـ « (رفعت) ! أنت لا تصغى إلىّ ! » .

أعادتنى صيحتها المحتجة إلى عالمنا هذا .. فرفعت عينى فى حرج .. إنها لا تعرف أن المشكلة هى أننى أصغيت لها أكثر من اللازم .. إلى الحدّ الذى لم أعد أستوعب معه حرفًا مما تقول ...

ـ « لا .. أنا معك .. أحيانًا يحسبنى الناس شارد الذهن » .

ـ « .. ويكونون على حق ! كنت أقول لك إننى تلقيت المكالمة الأولى فى الحادية عشر مساء أحد أيام (مايو) .. لا أذكر النصّ حرفيًا لكنه كان صوت رجل .. رجل يتحدث بنبرة عادية مهذبة ، لا بذلك الصوت المبحوح الخشن الذى يتحدث به من يعاكسون بالهاتف ، متظاهرين بأنهم مرعبون .. كان يقول بلهجة عادية جدًا : إنّهم سبعة .. لا ثامن لهم .. تعرفين عن أولهم فى اليوم السابع » .

ورشفت رشفة من قدحها .. هنا سألتها فى حيرة :

ـ كلام غريب .. هل تفهمين حرفًا من هذا الكلام ؟ .

جففت بقايا الشيكولاتة بمنديل ورقى ، وقالت :

ـ « وقتها لم أفهم .. كان كلامًا مقفى كالشعر ..

ورأيت أنها دعابة سخيفة .. إن العالم ملىء بالحمقى كما تعلم ..

بعد هذا بأسبوع ـ أى فى اليوم السابع ـ وجدوا جثة (جون مكارثر) وراء مقود سيارته .. وكان هناك خرطوم يقود الغازات الخارجة من العادم إلى داخل زجاج السيارة الموصد بإحكام بقطع من القماش .. إنها تلك الطريقة القديمة للإعدام بأول أكسيد الكربون .. كثيرون ينتحرون بهذه الكيفية .. لكن وضع الجثة وطريقة سدّ ثغرات العربة تدل على أن الحادث جريمة قتل .. جريمة تمت بعد تخديره طبعًا » .

صحت بصوت مبحوح :

ـ « هـ .. هل تتحدثين عن (مكارثر) زميلنا فى الجامعة ؟ » .

ـ « من سواه ؟ » ـ وابتسمت فى مرارة ـ « هذا الشاب الوسيم الذى كان يملأ الدنيا مرحًا وحبورًا .. لقد مات ببساطة .. ولم يعد كائنًا » .

ـ « و .. و المشتبه فيه ؟ » .

ـ « لا أحد .. لا بصمات .. لا أثر لشىء وحيد لعين .. » .

ثم إنها توقفت وراحت تتأمل المكان حولها .. وأشارت كطفلة منبهرة إلى (نارجيلة) تركية فاخرة الشكل .. وسألتنى :

ـ « لماذا لا تدخن هذه ؟! » .

كدت أضرب كفًا بكف .. هذه هى (ماجى) ذات الألف اهتمام .. تتحدث عن الموت ثم عن (النارجيلة) بذات الحماس .. قلت لها :

ـ « إنها وسيلة معقدة جدًا للانتحار بالدخان .. السجائر تؤدى الغرض ببساطة أكثر .. » .

ـ « أرجوك .. اطلب واحدة .. » .

ـ ليكن يا (ماجى) هانم .. لن يكون هذا أغرب طلب أقوم به لك .. وجاءت (النارجيلة) فرحت أسحب منها أنفاسًا متتابعة أمام عينيها المبهورتين .. ثم نفثت سحابة الدخان .. ووضعت المبسم جانبًا كأنما أقول لها : هل استرحت الآن ؟ أكملى القصة إذن ..

قالت (ماجى) :

ـ « مرت فترة حزن لا بأس بها .. ثم عادت الحياة إلى دورتها .. وبالطبع لم أجد شيئًا مريبًا يربط بين ما حدث وبين المكالمة .. لكنى تلقيت بعد هذا مكالمة هاتفية مماثلة ..



وجاءت (النارجيلة) فرحت أسحب منها أنفاسًا متتابعة أمام عينيها المبهورتين . .

قال لى المتحدث الرزين : إنهم ستة لا سابع لهم .. تعرفين ثانيهم بعد ستة أيام !

طبعًا رحت أصرخ وأتساءل .. وأطلقت عشرات من (من المتحدث ؟) .. و (كف عن هذا السخف) .. لكنه كان قد أنهى المكالمة ..

وبعد ستة أيام وجدوا جثة (هيلين بلاكلى) .. لقد ... » .

ـ « يا إله السموات ! أتعنين (هيلين بلاكلى) التى ... ؟ » .

ـ « نعم .. (هيلين بلاكلى) صديقتنا .. التى تدرس المحاماة .. » .

ـ « لكن .. هذا ... » .

ـ « نعم .. كانت إنسانة سيئة .. لكنى لو تمنيت أن يحترق كل السيئين الذين قابلتهم فى حياتى لتحول العالم إلى موقد كبير ! لم أكن أحب لها أن تتحول إلى الجثة المتفحمة التى وجدوها .. ثم إن الحبال التى قيدتها تدلّ على أنها كانت حية حين ... » .

شعرت برغبة فى القىء فرفعت كفى كى تتوقف .. بعد هُنَيهة استعدت أنفاسى .. فعدت أسألها :

- « .. أ .. أين وجدوها ؟ » .

- « فى حوش خردة قرب (جرامبيان) .. لقد كان خاتمها هو الذى جعلنى أتعرفها .. » .

قلت لها وأنا أتناول مبسم (النارجيلة) من جديد :

- « هل تعنين أن كل هؤلاء الضحايا من شلة الجامعة ؟ شلتنا ؟ » .

- « هذا هو ما يمكن استنتاجه عند هذه النقطة .. لكنى كنت أكثر حمقًا مما أظن .. فلم أربط هذه الحادثة بالمكالمتين السابقتين ...

ثم جاءت المكالمة الثالثة بعد شهر ... » .

- « خمسة لا سادس لهم .. تعرفين ثالثهم بعد خمسة أيام .. » .

- « هو ما تقول .. وعند هذا الحدّ كان لابد لى أن أتحرك .. اتصلت بـ (سكوتلانديارد) وأخبرتهم بكل شكوكى .. لم يكن عندهم ما هو أفضل من مراقبة جهاز الهاتف الخاص بى .. قلت لهم أن يراقبوا أفراد الشلة لكن الأمر بدا لهم سخيفًا .. لقد تفرقت شلتنا فى كل مكان .. فما هو الدليل المقنع الذى يبرّر تبديد أموال دافعى الضرائب من أجل وهم كهذا ؟ » .

ناديت النادل ـ دون وسوسة ـ كى يحضر لها كوبًا من العصير .. ثم سألتها وأنا أضع المبسم جانبًا :

ـ « وبالطبع لم يكن وهمًا .. من مات بعدها ؟ » .

ـ « لم يمت أحد .. إلا أننى قرأت فى (التيمز) خبرًا قصيرًا عن موت (تابيثا) فى سجنها باليونان .. لقد أوشك الأمر على أن يسبب أزمة دبلوماسية .. فما دام هؤلاء اليونانيون لا يعرفون كيف يحمون الإنجليز فى سجونهم ؛ فمن الأفضل أن يعيدوهم إلى (بريطانيا) .. » .

ـ « إنها نعرة بُناة الإمبراطورية هذه .. إذا كنت سأُذبح فليكن هذا بسكين إنجليزية لا بسكين من سكاكين القارة .. » .

ـ « بعد هذا ... » .

وراحت شفتها السفلى ترتجف .. وراحت تتنفس سريعًا ..

أدركت أنها على وشك الإصابة بانهيار عصبى .. لا بد أن كل هذا كثير على فتاة وحيدة رقيقة مثلها .. لزمتُ الصمتَ حتى تعود لحالتها الطبيعية .. والمطرب ما زال يترنم :

- « تعالى تعالى .. بعد سنة مش قبل سنة .. » .

أخيرًا عادت (تتواجد) .. فقالت وهى تمرر أصابعها عبر خصلات شعرها :

- « بعد هذا جاءت المكالمة الثالثة .. الثالثة ؟ لا .. الرابعة .. كانت تقول ذات الكلام .. أربعة بلا خامس .. سأعرف الرابع بعد أربعة أيام .. » .

- « جميل حرصه على أسلوب المتوالية العددية .. إننى أحب هؤلاء السفاحين المنظمين .. ومن الرابع ؟ هل هو (ألفريد) ؟ أرجو ألا يكون (رتشارد ماكنزى) .. » .

- « كان هو (ألفرد) حقًّا .. مات غرقًا فى حمام السباحة فى داره .. توجد عصا خشبية طويلة جوار الحمام .. واضح أنها الوسيلة التى تم استعمالها لإرغامه على البقاء تحت الماء ..» .

- « يا للبشاعة ! لماذا لا يطلق عليهم الرصاص وينتهى الأمر ؟ ثم هل توصل رجال الشرطة إلى مصدر المكالمة ؟ بالطبع لا .. إن الحمقى فقط هم من لا يتصلون من هاتف عمومى ليهددوا ضحاياهم .. » .

- « أنت تعرف الإجابة .. على كل حال بدأ رجال

(سكوتلانديارد) يهتمون حين قلت لهم إن الضحية الخامسة لن تخرج عنى أو عن (رتشارد ماكنزى) أو (إليزابث) ..

وحين تلقيت المكالمة الخامسة : ثلاثة لا رابع لهم .. تعرفين عن الخامس بعد ثلاثة أيام ..؛ عندها تحرك رجال (سكوتلانديارد) المرعبون .. إنهم يعرفون كيف يجعلون حياتك جحيمًا .. استجوابات .. استجوابات .. وشرطى خارج غرفة نومك وفى مدخل دارك ، ثم مراقبة صارمة لكل المذكورين (إليزابث) و (ماكنزى) .. كلا .. لم يكن (ماكنزى) موجودًا لأنه كان فى اليابان يجرى صفقات تجارية معينة ..

على كل حال لقد وجده اليابانيون مشنوقًا فى غرفته .. كلا .. لم ينتحر لأن آثار المقاومة كانت واضحة لأىّ أعمى .. إن سفاحنا لهو سفاح غير عادى .. سفاح يلاحق ضحيته عبر البحار ويظفر بها فى الوقت الذى يحدده هو .. » .

ـ « وبعد هذا ماتت (إليزابث) طبعًا ؟ » .

ـ « لا .. لم تمت .. لأن رجال الشرطة قد جعلوها تنتقل إلى (ليفربول) .. وهى تحت حراسة مشددة

حقًا .. ثم إن الرجل لم يتصل بى .. يقول خبراء (سكوتلانديارد) إنّ هذا الطراز من السفاحين يؤدون مهمتهم طبقًا لطقوس خاصة أقرب إلى الطقوس الدينية .. لا بد من الاتصال بى وإلا فلن تتم الجريمة .. هكذا قال لى البروفسور (كنجزفيلد) وهو خبير فى هذه الأشياء القذرة .. واقترح رجال (سكوتلانديارد) علىّ أن أذهب بعيدًا إلى حيث لا يجدنى ذلك الوغد .. نصحونى كذلك ألا أردّ على الهاتف إلى أن أسافر .. » .

ـ « لهذا فكرت فى مصر .. وفى (رفعت) الكهل .. » .

مدت يدها لتلمس يدى .. عود ريحان فوق صخرة هرمة ..

ـ « أنت آخر من أثق به فى العالم يا (رفعت) .. ألا تفهم هذا ؟ أنت جزء من روحى ذاتها .. إن حالة (بارانويا) مخيفة تنتابنى .. لم أعد أثق بأحد .. (جراهام) .. مسز (أوركهارت) .. أحدهم سيقتلنى .. أحد الخدم .. (إلسترى) .. (ويليام) .. (أندرو) .. ماذا أعرف عن أى واحد منهم ؟ واحد فقط أعرف أنه أحبنى حقًا .. أعرف أنه يقبل الموت كى لا أموت .. » .

ـ « بل ويقبله كى لا تصابى بالزكام .. » .

قلتها صادقًا .. قلتها كأنها زفرة تغادر روحى إلى النجوم ..

قالت ممتنة :

ـ « أعرف هذا .. وكنت أنت أول من فكرت فيه حين اقترحوا علىّ السفر .. لم أكن أملك وسيلة سوى الخطابات للأسف .. لكنى كنت أعرف أنك ستردّ على سريعًا .. قبل أن ... يتصل .. » .

قلت لها وأنا أحاول التحكم فى رجفة يدى :

ـ « هل تعتقدين أنك السادسة ؟ » .

ـ « فى (سكوتلانديارد) دار السؤال ذاته .. وقد رجحوا أننى السابعة ما دمت أتلقى هذه المكالمات ولم يتلقها سواى .. إذن لا بد أن تنتهى السلسلة بى .. إن (إليزابث) هى الضحية السادسة حتمًا .. »

وصوت المطرب ما زال يتردد ، وهو يطوح رأسه يمينًا ويسارًا :

ـ « إزاى إزاى .. أوصفلك يا حبيبى إزاى ؟

قبل ما حبك كنت إزاى يا حبيبى ؟ » .

نظرت له (ماجى) .. ثم سألتنى بشكل عابر :

ـ « ماذا يقول الآن ؟ » .

ـ « يقول إنه لا يعرف كيف يصف لحبيبته حاله قبل لقائها .. » .

ـ « هذا الوقت كان يكفينى لسماع عشر ألبومات لفريق (البيتلز) .. » .

ـ « هذا هو الشرق فلا تحاولى فهمه .. أنت لن تحبى (أم كلثوم) إلا حين تصيرين عربية لحمًا ودمًا .. والآن فلنعد لسفاحك هذا .. من المؤكد طبعًا أنه سيقتل (إليزابث) بالرصاص أو برميها من علٍ .. » .

ـ « قالوها أيضًا فى (سكوتلانديارد) .. إن القاتل لا يكرر أساليبه .. وقد استعمل الخنق بالغاز .. الحرق .. قطع الرقبة .. الشنق .. الغرق .. إذن لم يبق له من وسائل سوى الرصاص والسقوط من أعلى .. هناك السمّ طبعًا لكن مزاجه السادى لا يوحى بأسلوب رقيق كهذا .. » .

هنا انفجرتُ ضحكًا .. فسألتنى فى غيظ :

ـ « ما المضحك فى كل هذا ؟ » .

ـ « أضحك من موقفنا .. حقًّا إننى لنحس ! بعد كل هذه الأعوام نلتقى فى مكان شاعرى نصغى لغناء

(أم كلثوم) .. فعمّ يكون كلامنا ؟ عن الذبح والحرق والخنق ! مستحيل أن يعيش (رفعت اسماعيل) حياة طبيعية هادئة .. لقد صار هذا من نواميس الكون ..» .

ـ « هذا حق .. لقد صرت أنا قصتك الجديدة .. » .

ثم شردت عيناها وهى ترمق المطرب .. وهمست :

ـ « تُرى كيف ينتهى كل هذا ؟ وهل تعود حياتى كما كانت ؟ » .

لم أجب احترامًا لشرودها ..

والمطرب يترنم وقد بلغ به الانسجام مداه :

ـ « هو العمر فيه كام ليلة .

زى الليلة ؟ زى الليلة ؟ » .



٤ ـ إنه هنا !

أسطورتها أنها تثق بى ..

★ ★ ★

أغنية د. (رفعت إسماعيل)

أنا لست قويًّا كأبطال الإغريق ..

أنا لا أطير ..

ولن أدخل مشاجرة مع رجل آخر مهما كان ضعيفًا ..

إلا وقد تهشم وجهى ..

ومع ذلك تحبيننى ؟

★ ★ ★

لست عدَّاءً ولا ملاكمًا ..

لست موسيقارًا أسكب ألحان حبى فى أنغام .

يسمعها الناس ويتساءلون : من هى تلك المحظوظة ؟

لن ترى صورتى فى كل الصحف مقرونة بالمديح .

لتقولى لصاحباتك : هوذا رجلى ...
ومع ذلك تحبيننى ؟

★ ★ ★

حتى فى عالم الطب ..
أنا لست (ماكس ليبمان) ولا (ويليام أوسلر) ..
إن الأشياء التى أعجز عن عملها لتملأ عشرة مجلدات ضخمة ..
أنا لن أنقذك من الغرق لأنى لا أعرف السباحة ..
لكنى سألقى بنفسى فى الماء لأغرق قبلك ..
أنا لن أصارع أسدًا ..
لكنى سأموت بأنيابه قبل أن يلمسك ..
ومع ذلك تحبيننى ؟

★ ★ ★

غريبة أنت .. وذوقك أغرب ..
لن أفهمك أبدًا ..
لكنى سعيد وفخور ..
وهذا هو كل ما أستطيع قوله الآن ..

★ ★ ★

أيام مرت كأنها الحلم ..

كنت سعيدًا كثعبان فرغ من التهام فأره الصحراوى ..

أو طفل فى متجر حلوى ..

فى الصباح نرى شيئًا جديدًا .. لا يهم ما هو .. لكنه جديد .. أعيد اكتشاف سحر النيل والهرم والمُتحف المصرى والإسكندرية والناس ..

لا بد أنه أسبوع كامل قد مضى علينا ..

وفى تلك الليلة أوصلتها إلى الفندق .. قالت وهى تداعب مفتاحها :

ـ « عمت مساء يا (رفعت) .. لا تتأخر غدًا .. » .

ككل ليلة تقولها .. وككل ليلة أعدها ..

وأعود إلى دارى سعيدًا .. يشتمنى سائقو السيارات الأخرى وأنا سعيد .. يدوّن شرطيو المرور رقم سيارتى وأنا سعيد .. تؤلمنى ساقاى وأنا سعيد .. يمكننى فهم شعور (جين كيللى) وهو يغنى تحت المطر ؛ حينما نظر له الشرطى شذرًا فلم يجد تفسيرًا سوى : إننى فقط أرقص وأغنى فى المطر !

وحين دخلت الدار ؛ أعددت لنفسى قدحًا من الشاى ..

وجلست أدوِّن ما حدث طيلة اليوم بالتفصيل .. لا أريد أن أنسى حرفًا من كل هذا ..

هنا دق جرس الهاتف ..

منذ أيام كفّ جهاز الهاتف عن أن يكون وسيلة لملاحقتى بالكوارث فى عقر دارى .. إن (ماجى) تستخدمه كثيرًا لتثرثر قبل أن تنام .. لتقول لى إنها سعيدة ، وإنها ممتنة لى .. ولتوصينى أن أنام جيدًا .. وأن أشرب (التليو) لأهدئ أعصابى الثائرة دومًا ..

رفعتُ السماعة أنتظر سماع البلابل تغرد ..

كانت البلابل هناك .. لكنها لم تغرد .. كانت تعوى فى جنون :

- « (رفعت) ! لقد اتصل بى ! » .

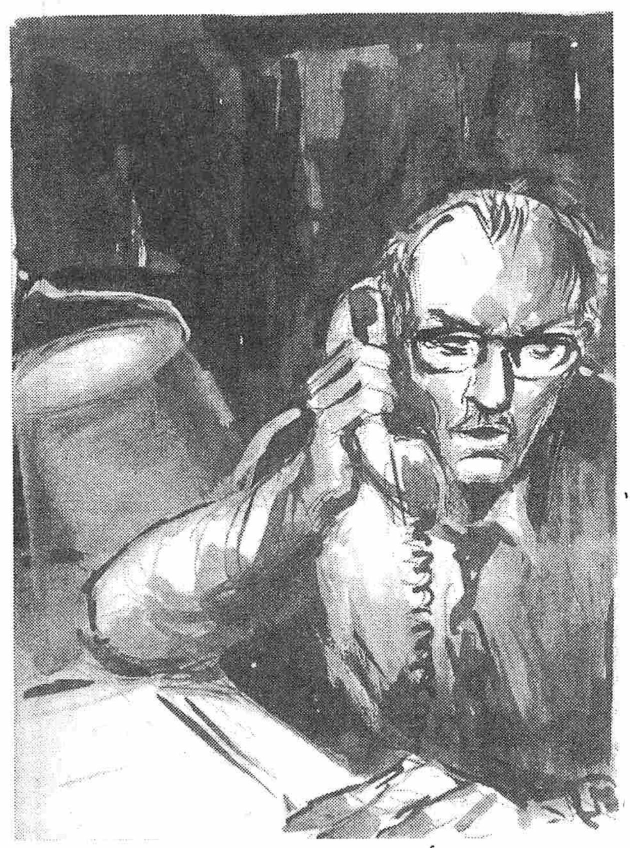
- « مساء الخير يا (ماجى) .. قلت لك أن مندوب شركة السياحة سوف ... » .

- « أنا أتحدث عنه .. عنه ! » .

- « ماذا ؟ المتحدث الرزين إياه ؟ » .

- « نعم ! قال لى : إثنان لا ثالث لهما .. تعرفين عن السادس بعد يومين ! » .

أحسست بالخطر .. وجفَّ قلبى .. تصلبَّت شعيرات



رفعت السماعة أنتظر سماع البلابل تغرد .. كانت البلابل هناك .. لكنها لم تغرد .. كانت تعوى فى جنون :

ـ (رفعت) ! ..

شاربى لأنى لا أملك شعر رأس .. كـ .. كيف ؟ هل هو ؟

ـ « (ماجى) .. هل أنت واثقة مما تقولين ؟ » .

ـ « مثلما أعرف أننى أنا .. (رفعت) .. إنه قريب منى جدًّا ! » .

جلست متهالكًا على مقعدى .. الأمر يتجاوز قدراتى على التفسير ..

ـ « هل هناك من يعرف أنك فى هذا الفندق ؟ » .

ـ « لا أحد سواى وسواك .. ثم إن المكالمة لم تأت من (انجلترا) .. إنها من (القاهرة) .. لقد تأكدت من هذا بنفسى .. » .

ـ « إذن هو قد جاء خلفك .. » .

ثم استجمعت قواى .. فقلت لها بصوت متعقل :

ـ « دعينا نناقش الأمر فى الصباح .. إن شيئًا لن يحدث قبل يومين .. لم لا تحاولين النوم الآن ؟ » .

أطلقتْ سبّة إنجليزية لا أعرف معناها الدقيق .. وصاحت :

ـ « بحق السماء .. أتحسب أننى قادرة على النوم بعد هذا ؟ » .

- « إن أقراص (الفاليوم) صالحة تمامًا .. وإن لم تجدِ فهناك السمّ .. لكنى غير متحمس له لأسباب يطول شرحها .. » .

- « تبًا لك ! » .

ووضعت السماعة فى عصبية .. يبدو أننى بالغت فى المزاح قليلاً .. ليس من الأمور المستحبة أن تعرف أن سفاحًا يحوم حولك ويعرف رقم هاتفك .. كان علىّ أن أقدر هذا ..

المهم .. نهضت لأضع قرصًا من (النتروجلسرين) تحت لسانى .. يبدو أن إمداد الدم لعضلة قلبى لا تناسبه أخبار كهذه ...

إنه هنا ! يعلم اللّه كيف ومتى جاء إلى مصر ..

لكن خطرًا داهمًا يهدد حياة (ماجى) بعد يومين .. خطر بنسبة خمسين بالمائة ...

ما زال من الممكن أن يكون الكلام مخصصًا لـ (إليزابث) ...

وفى قرارة نفسى تمنيت أن يكون ذلك صحيحًا ..

★ ★ ★

فى الصباح قابلتها .. وكانت ـ كما تتوقع ـ فى أسوأ حال ..

ـ « (رفعت) .. إنه خلفى ! يعلم أننى جئت هاهنا .. ويعلم الفندق الذى أقيم فيه .. ويعرف رقم غرفتى ! » .

كنا جالسين فى (السنترال) بانتظار مكالمتها لـ (إنجلترا) ..

ـ « يجب أن يعرفوا أنه اتصل .. وأن يضاعفوا الحراسة على (إليزابث) البائسة .. من يدرى ؟ » .

أردت أن أطمئنها على (إليزابث) بحماقتى المعهودة .. فقلت :

ـ مادام يتصل من مصر .. فمن المؤكد أنك أنت القادمة لا (إليزابث) .. يمكنك الاطمئنان إذن ! » .

ـ « صحيح .. شىء مطمئن .. أشكرك .. » .

هنا جاءت المكالمة ـ بعد دهر كالعادة ـ فهرعتْ إلى الكابينة .. وفتحتْ لى لأدخل معها .. وبيد مرتجفة تناولتْ السماعة .

انطلقت فى الكلام بإنجليزيتها الصميمة حتى إن ربع ما تقول كان يفوتنى .. حين يتحدث الإنجليز إلى سواهم يتعمدون إظهار مقاطع الكلام والضغط على

الحروف .. لكن حين يتحدثون فيما بينهم يلتهمون نصف الحروف باعتبارها شيئًا يؤكل ..

فهمت أنها تطلب المفتش (جيرهارد) فى الإدارة .. تخبره بأنها تلقت المكالمة السادسة .. تصمت .. تهمهم .. تقطب .. أرمقها فى اهتمام .. لا أدرى حتى اليوم إن كانت جميلة أم لا .. المهم أننى أهيم بكل ملمح من ملامحها .. وكل تجعيدة على جانبى فمها .. وهى تتابع المحادثة باهتمام ..

سمعتها تملى رقم هاتفى .. ثم تقول للمتحدث مرارًا :

ـ آها .. إذن هو كذلك ؟ » .

ثم ودعتْ المتحدث .. ووضعتْ السماعة .. ولم تنظر لى ..

ـ « هيا بنا .. » .

وغادرنا الكابينة إلى الهواء البارد بالخارج .. عطستُ مرتين .. ثم سألتها وأنا أتمخط فى عناية :

ـ « هل من جديد ؟ » .

قالت وهى تخف السير وقد دسّت يديها فى جيبى معطفها :

ـ « أنباء مهمة جدًا .. إن أحد أصدقائى ـ (أندرو) بالذات ـ قد غادر المملكة منذ أيام .. من المصادفات الغريبة أنه قرر فجأة أن يستمتع بشمس مصر فى الشتاء ! » .

قلت لها بغباء وقد استيقظ حسى السياحى :

ـ « لِمَ لا ؟ إن جو مصر المشمس فى هذه الفترة بالذات لهو ... » .

نظرت لى فى حنق .. ثم قالت ضاغطة على كلماتها :

ـ « (رفعت) .. أحقًا لا ترى ما يريب فى هذا ؟ هناك من يعرفنى وهو موجود فى مصر الآن .. يمكن القول دون تردد إنه هو (أندرو ماكفرسن) نفسه .. » .

ـ « معنى هذا أنه هو قاتلك المتسلسل ؟ » .

ـ « لا أعرف سوى حقيقة واحدة .. لا يوجد فى (مصر) كلها من يعرف كل شىء عنى سواك و(ماكفرسن) هذا .. » .

ـ « وهل هو يعرف أنك فى مصر ؟ » .

ـ « لا أحد يعرف .. قلت لرفاقى والخدم إننى ذاهبة إلى (سان موريتز) للتزلج .. إن الموسم لم يحلّ بعد لكنهم لم يلاحظوا .. » .

- « على كل حال يمكن اكتشاف الحقيقة بسهولة .. »

- « قال لى المفتش أن آخذ حذرى .. أو أعود إلى المملكة فورًا ..

لكنى - برغم هذا - أشعر بالأمان هنا أكثر .. » .

وجلستْ فى السيارة جوارى .. فأدرت مفتاح (الكونتاكت) باحثًا عن سؤال جديد .. ماذا كنت أريد قوله ؟ آه !

- « هل (أندرو) هذا مخبول أو لديه من الأسباب ما يدعوه لقتل شلتك واحدًا واحدًا ؟ » .

قالت وهى تدير مقبض الزجاج بجوارها :

- « إنه إنسان متزن جدًّا .. ودود جدًّا .. لكنى لم أعد أثق بأحد على الإطلاق .. كل السفاحين متزنون ودودون .. وكلما اعتقل البوليس أحدهم ضرب الناس كفًا بكف : لم نتصور قط أنه سفاح .. لقد كان متزنًا ودودًا بارًّا بوالديه إلى أقصى حدّ .. » .

تذكرت هنا عبارة (عادل) الرائعة ، حين كان على وشك القبض على سفاح الإسكندرية فى قصة آكل البشر .. لقد قال لى :

- « إن السفاح ليس شخصًا منكوش الشعر ،

يجرى فى الشوارع شاهرًا سكينًا واللعاب يسيل من شدقيه ! » .

لم أنس هذه العبارة قط ..

ولكن .. هل القضية بهذا الوضوح حقًّا ؟

★ ★ ★

افترقنا فى المساء ..

عدت إلى شقتى .. لا داعى للاعتراف بأن زيارة (ماجى) لمصر قد فسدت تمامًا .. لقد عكّر الخطر الداتى كل أمل فى أن تنعم بزيارتها ..

جلست فى الصالة ، وأحضرت ورقة وقلمًا ورحت كديدنى أدوّن النقاط المهمة فى هذه القضية .. أحيانًا يُولد التفسير على الورق .. وأحيانًا يزداد الأمر تعقيدًا .. المهم دائمًا هو أننى أعرف على وجه اليقين ما ذلك الذى أعرفه :

١ ـ توجد جرائم قتل متعدّدة .. إن ذكائى يؤكد هذا .

٢ ـ من الواضح أن مرتكبها (قاتل متسلسل) أو ما يسمونه Serial Killer

٣ ـ من المحتم أن ينفذ سبع جرائم أتمّ خمسًا منها بنجاح تام .. ربما كان ولعه بأسلوب المتوالية العددية

لعبة استمدها من قصص (أجاثا كرستى) .. وربما كانت هذه رسالة ما .. لا أدرى ..

٤ ـ القاتل يعرف السبعة .. كلهم شلة واحدة فى جامعة (داندى) .. منهم من كان يدرس الهندسة ، ومنهم من درس الأدب أو الفيزياء .. هل هو ثامن الشلة ؟

٥ ـ (أندرو ماكفرسن) صديق (ماجى) فى (مصر) الآن .. إن هذا مريب حقًا .. فهل كان فى (اليونان) حين ماتت (تابيثا) وكان فى (اليابان) حين مات (ماكنزى) ؟ إن إخفاء هذا مستحيل ..

٦ ـ ولو كان هو (أندرو) .. فما علاقته بالشلة المنكوبة ؟

٧ ـ وهو السؤال الأهم : هل (ماجى) تعرف أكثر مما قالت لى ؟ لقد كان هذا دأبها دومًا .. إنها ممن يمارسون الكلام بالقطارة ..

٨ ـ وهو السؤال خارق الأهمية : من الذى سيموت غدًا ؟ (إليزابث) أم (ماجى) ؟

على الأقل أنا أعرف إجابة هذا السؤال ..

توجهت إلى غرفة النوم .. رفعتُ حشية الفراش وأخرجت المسدس الذى لم أستعمله منذ زمن .. متى أطلقت آخر رصاصة منه ؟ على (العسّاس) ؟ ربما .. لكنها ليست الأخيرة ..

القوة المطمئنة للمعدن الأسود البارد فى يدى ..

أنا أعرف أن (ماجى) لن تُقتلَ غدًا ..



٥ - فلينته اليوم سريعًا ..

أسطورتها .. أنها استعمرت وجدانى دون مشاة ولا مدافع أسطول ..

★ ★ ★

ليلة سوداء قضيتها .. أسود من لحية (راسبوتين) وعباءة (دراكيولا) .. ورحت أحلم .. أحلم أحلامًا صبيانية للأسف كاد جبينى يندى لها خجلاً ..

هى ذى (ماجى) فى الأدغال تسقط فى الماء صارخة .. تمساح وغد يخرج من القاع فاتحًا فكيه الرهيبين .. عندئذ يثب (رفعت) العظيم عارى الصدر ملوّحًا بخنجره .. ويصارع التمساح ويمسكه من ذيله .. ثم يعقده ويلقى به بعيدًا ..، (ماجى) خطفها النازيون إلى قلعة النسور .. (رفعت) العظيم يهشم الباب بقدمه .. ويدخل حاملاً (مترليوز) عملاقًا .. النازيون يتطايرون فى كل صوب والدماء تتناثر .. (ماجى) تنظر لى فى انبهار وقد فهمت أخيرًا أننى الرجل الذى يصلح لها ..

يدها الحالمة تداعب صلعتى .. و ...... جرس الإنذار يدق !

رنين المنبه .. يا للعنة ! إنه اليوم الموعود ..

هرعت إلى الفندق .. وأخبرتها بالهاتف إننى أنتظرها فى الاستقبال .. هكذا أفعل صباح كل يوم ..

بعد برهة جاءت .. وأدركت من شعرها المشوش وانتفاخات جفنيها أن ليلتها لم تكن أسعد حالاً .. وأن معنوياتها (زفت) .. لم تقل هذا بالضبط لكنها ذكرت لفظة إنجليزية مماثلة لها نفس الرنين !

ـ « ما هو برنامجنا اليوم ؟ »

سألتنى وهى ترشف القهوة .. فأجبتها وأنا أتصفح الجريدة :

ـ « برنامجنا هو البحث عن مكان لا يمكن فيه ذبحك ، أو إغراقك أو رميك بالرصاص ببندقية تلسكوبية ، أو إلقاؤك من علٍ .. »

ـ « وأين هذا المكان ؟ » ـ بسخرية سألتنى ..

ـ « فى القبر ؟ »

ـ « عندى ما هو أشبه بالقبر .. شقتى .. ستمضين اليوم عندى .. وغدًا يوم آخر .. »

- « لا بأس .. كنت سأقترح عليك شيئًا كهذا .. »
وانطلقنا بالسيارة إلى الدقى ..

كنت قد قدمت عرضى .. لكنى ظللت أتساءل عن الطريقة العبقرية التى أستطيع أن أصعد بها إلى شقتى دون أن يخرب الجيران بيتى ..

لقد كادوا يخربون بيتى حين استضفت (هن - تشو - كان) وهو كاهن من التبت .. فماذا سيفعلون حين أستضيف حسناء من (إسكتلندا) ؟

على كل حال لن يكون الزحام شديدًا .. إنها الحادية عشرة صباحًا ، ولن يقابلنى سوى صبى الكواء على الأكثر ..

تذكرت (براكسا) حسناء المقبرة .. وارتجفت ..

عند مدخل البناية لم يكن البواب موجودًا .. فهو يتسلّى بالعمل مناديًا للسيارات على سبيل تحسين الدخل .. ولا تجده أبدًا إلا أول الشهر حين يتقاضى راتبه الشهرى ..

وصعدنا إلى الشقة دون مشاكل ..

فتحت لها الباب وراحت تتشمم الجو فى فضول ، وكفًاها لم تفارقا جيبى معطفها .. قالت فى هدوء دون تعبير معين :

ـ « إذن أنت تعيش هنا ؟ »
ـ « لا تخافى .. لقد تخلصت من الوطاويط والثعابين أمس .. »
كنت أتكلم وأنا آتى بحركات أشبه بحركات الحواة .. أدارى بنطال المنامة الملقى على هذا المقعد .. أركل هذا الحذاء بعيدًا .. أغطى بالمفرش بقعة الشاى هذه .. أين أنت يا أم (عوض) ؟!
قالت (ماجى) فى خبث وهى تتأمل المكان :
ـ « الآن صدقت أنه لا توجد امرأة فى حياتك ! »
ـ « تعنين أنه لا توجد روائح عطرية أو ... »
ـ « بل أعنى أنه ما من امرأة تتحمل هذه الفوضى .. لقد رأيت مقالب قمامة أكثر نظامًا وجمالاً من هذا البيت ! »
ـ « أشكرك .. » قلتها فى كبرياء ـ « .. وعلى كل حال .. هناك امرأة فى حياتى .. »
ـ « حقًّا ؟! »
ـ « نعم .. واسمها (أم عوض) أو (أم سعد) ـ لا أدرى بالضبط ـ وليس ذنبى أن زوجها ضربها على رأسها بزجاجة الزيت ، وحلف عليها بالطلاق ألا تغادر



قالت (ماجى) فى خبث وهى تتأمل المكان :
ـ الآن صدقت أنه لا توجد امرأة فى حياتك ! ..

الدار ثانية .. يبدو أنها رفضت أن تعطيه النقـود التـى كسبتها من العمل ليشترى بها حشيشًا ! »

ـ « فهمت .. »

قالتهـا دون أن تفهـم شـيئًا بـالطبع .. ونزعـت معطفها وجلست على الأريكة للحظة لم أدر مـا ينبغى عمله .. فالأمر كله أشبه بحلم ..

قلت لها إننى سأتغيب بعض الوقت ، وفتحت لها جهـاز التلفزيـون .. لأكتشـف أنـه لا يوجـد إرسـال صباحى فى عام ١٩٦٩ ..، أحضرت لها كومـة من الكتب الإنجليزية وأكداسًا من الصور الفوتوغرافية ..

نزلـت للشـارع فـابتعت وجبـة جـاهزة لشـخصين .. وبيضًا وخبزًا للعشاء .. و .. ليتنى أعرف كيف يدعو الناس بعضهم البعض ..

عدت للبيت .. فلم أجدها فـى الصالـة .. دخلـت حجرة المكتب فوجدتها جالسة تتصفح بعض المراجع الطبية .. منها كتاب (تشامبرلين) القديم الـذى كـان معى فى (إسكتلندا) ..

ولم يفتها بالطبع أن ترى على كل هوامش الكتـاب ذلك الوجه الرقيق أشقر الشعر ؛ الذى لم أكن أستطيع أن أطالع الصفحة دون أن أرسمه على الهامش ..

- « هذه .. أنا ؟ »

قالتها فى رقة .. قالتها فى ثقة .. قالتها فى امتنان ..

- « ومن سِواك ؟ »

كانت هناك أبيات شعر لـ (شيلى) .. ومقاطع من أغنيات عاطفية .. ومناديل ورقية تخلصت هى منها لكنى احتفظت بها بين دفتى الكتاب .

نظرت لى بعينها الزرقاء الصافية .. وهمست :

- « للأبد ؟ »

- « ماذا ؟ »

- « ستكون لى للأبد ؟ »

- « وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى ..... »

ترررررررن !

جرس الباب ! منذ خمسة عشر عامًا وأنا أحاول إتمام الجملة الأخيرة .. ولا بد فى كل مرة أن يبرز لى وحش (لوخ نس) أو شبح السير (ماكيلوب) أو يدق جرس الباب .. أنا نفسى أتمنى معرفة ما سأقوله بعدها ..

تركتها فى غرفة المكتب وهرعت إلى الباب ..
وقبل أن أمدّ يدى للمقبض تحسست يدى المسدس ..
فمن يدرى ؟

★ ★ ★

ـ « (ماجى) ! انحرفى يمينًا ! »
لااااااااه !
ولكن الموسيقا كانت تغطى على أصوات الصراخ ..

★ ★ ★

كان القادم هو (عزّت) ..
(عزت) فى الثانية عشرة ظهرًا ؟ هذا غريب ..
كان بكامل ثيابه ، وهو يلتهم قطعة من البسكويت المملح ..
فما إن رآنى حتى هتف فى مرح :
ـ « صباح الخير يا (رفعت) .. »
ـ « صباح الخير .. إن استيقاظك مبكرًا اليوم لهو ظاهرة كونية .. »
قال وهو يكوم غلاف البسكويت ، ويرميه فى صندوق قمامتى :
ـ « ليس بيدى .. لقد أيقظنى من النوم ذلك

(الخواجه) صديقك .. قلت له إنه من المستحيل أن تكون فى الشقة .. لكن ... »

غمرتنى الدهشة ، فقاطعته مستعيدًا ما قال :

- « ماذا ؟ (خواجه) ؟ صديقى ؟ ماذا قال ؟ »

- « لا شىء .. كان يتحدّث العربية الرديئة جدًّا على غرار الخواجة (بيجو) .. قال إنه يريدك لأنه صديقك .. أشرت له على شقتك وأنا أوشك على ضربه لأننى لم أنم بما يكفى .. دق الجرس مرارًا .. وقرع الباب مرارًا .. ثم عاد يائسًا وترك لك هذا الخطاب .. »

وناولنى مظروفًا مفتوحًا به ورقة مطوية ..

- « وكيف كان يبدو ؟ »

- « لا أدرى .. يبدو من النوع الذى لا يُقهر بسهولة وإن تظاهر بالعكس .. وهو يجيد ادعاء القنوط لكنه متفائل ! »

صعد الدم إلى رأسى .. فصحت وأنا أوشك على الإصابة بنوبة قلبية :

- « يا لك من ..... ! أنا لم أطلب تحليله النفسى أو اختبار فراستك .. أريد معرفة هل هو طويل أم قصير ؟ بشارب أم لا ؟ »

بدا الذكاء على وجهه الكالح .. وفكّر قليلاً ثم قال :
ـ « لا أدرى .. إنه رجل أجنبى .. كلهم يتشابهون .. كان حليق الوجه .. هل هذا كافٍ ؟ »
ـ « حسن .. شكرًا يا (عزّت) .. لن أدعوك للدخول إذ تبدو متعجلاً .. »
ـ « نعم .. إننى أحلم برؤية (القاهرة) نهارًا ! »
وهكذا أغلقت الباب ، وقد تحوّل رأسى إلى محرّك قطار .. ما معنى قدوم رجل أجنبى إلى دارى يسأل عنى ؟
على كل حال يمكننى أن أقرأ الورقة ..
ورقة أنيقة هى .. كُتب عليها بخط مُهندم وبالإنجليزية :
ـ « لقد اقتربنا جدًّا ! »
كنت أتوقع شيئًا كهذا ..
إن التهديد واضح وصريح .. وقادر على الوصول إلى دارى ..
عدت إلى (ماجى) فى حجرة المكتب .. كانت عاكفة على تقليب صفحات كتاب (تشامبرلين) إياه .. غافلة بالطبع عن فحوى رنين الجرس .

هل أخبرها ؟ لا داعى .. لن يضيف قلقها شيئًا ..

لكن (ماجى) ذكية إلى حدّ مخيف كما تعرفونها دائمًا .. لقد قرأت القصة كاملة على ملامح وجهى .. وسألتنى :

- « هناك خبر مفزع .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. قد تكون دعابة .. »

- « الدعابات لا تظهر فى يوم كهذا .. هلم .. أتحفنى .. »

قدمت لها الورقة فقرأتها بعناية .. ثم سألتنى عن صاحبها .. فأخبرتها .. سألتنى عن سماته .. فقلت لها :

- « رجل يجيد ادعاء القنوط لكنه متفائل .. »

- « أتمزح ؟ »

- « هذا هو كل ما رآه (عزّت) جارى فيه .. إن (عزّت) يتمتع بفراسة غير مسبوقة .. على كل حال هو حليق الوجه .. هل (أندرو ماكفرسن) حليق الوجه ؟ »

- « .. حليق ؟ » - قالتها فى شرود وهى تغلق الكتاب وتعيده إلى موضعه فى المكتبة - « .. هووم ؟!

غريب .. إن (أندرو) ملتح .. على كل حال يمكن دائمًا حلق اللّحى .. »

- « وقد لا يكون هو .. »

وما معنى هذا كله ؟

معناه أن هذا الشخص بارع جدًّا .. ربما تتبع سيارتى .. وربما راقبنى أنا و (ماجى) أيامًا .. إنه يعرف علاقتى بها جيدًا .. فحينما ترك رسالته هذه لم تكن (ماجى) فى شقتى ..

كان يريد منى أن أبلغها بهذا كله ..

★ ★ ★

وتمر الساعات متوترة ..

متى ينتهى هذا اليوم المقيت ؟

هل ينتهى فى الثانية عشرة مساء بتوقيت (القاهرة) أم بتوقيت (مالاجاش) ؟ وهل تكفى حمايتى لـ(ماجى) كى تجعله يعدل عن المحاولة ؟ ربما سيحاول .. وعندئذ يكون من واجبى أن أكون أكثر حذرًا .. وربما لن يحاول .. سيؤجل الموعد إلى الغد .. محاولة صغيرة للغش فى اللعب .. لِمَ لا ؟ إنه هو الذى يمسك المفاتيح فى يده ..

فهل ستظل (ماجى) مهدّدة هكذا للأبد ؟
كنا جالسين فى الصالة نشاهد التلفزيون ..
برنامج أطفال سخيف عن البطة (بط بط) والكلب (بوبى) والقطة (بسبس) .. دمْى بدائية سخيفة .. حوار مملّ .. لكننا كنا متوترين عصبيًا حتى رحنا نتابع هذا الهراء فى شغف ..
ثم رحنا نضحك .. نضحك ..
ونظرت إلى الساعة .. إنها الثامنة مساءً .
لم نكن قد تناولنا طعام الغداء .. فقدنا شهيتنا .. كما لم أوجه لها عبارة رقيقة واحدة .. من يملك البال الرائق للرومانسية وسط هذا التوتر المنذر ؟
كانت جالسة القرفصاء فوق الأريكة تتابع برنامج التلفزيون الذى لا تفهم منه حرفًا .. قطة صغيرة تحتاج إلى حماية أى كائن حتى لو كان هذا الكائن هو (رفعت اسماعيل) ..
التاسعة مساءً ......
مذيعة مملة تسأل ضيفًا أكثر إملالاً :
- « هل تعتقد سعادتك أن العمل فضيلة وعبادة ؟ »
يقول لها وهو يسترخى فى كرسيه ، وكرشه يزداد تكورًا :

ـ « إن رأيى الخاص الذى قد لا يوافقنى عليه الكثيرون هو أن العمل فضيلة وعبادة .. أقولها بصراحة وأمانة .. »

سألتنى (ماجى) وهى تقرض أظفارها :

ـ « عم يتكلمون ؟ »

قلت لها فى خجل :

ـ « يتكلمون عن .. عن المستقبل النووى لـ (مصر) ! »

ثم نهضت لأعدّ بعض الشاى .. كلا .. لن أسلق البيض الآن .. يجب أن يكون هناك ما أفعله فى العاشرة مساءً وإلا جننت ..

هل الأبواب مغلقة كلها ؟ بالتأكيد ..

باب الشرفة مغلق .. والنافذة مغلقة .. وباب الشقة ..

وهنا خطر لى خاطر مروع ..

هل يكون القاتل معنا فى الشقة ؟

لِمَ لا ؟ ربما تسلل إليها فى الصباح بعد ما تأكد من عدم وجودنا بها .. وهو الآن ينتظر .. ربما وراء

ستارة غرفة النوم أو تحت الفراش أو تحت مائدة الطعام !

ربما كان معنا طيلة الوقت ونحن لا ......

هنا ساد الظلام الشقة ..

وسمعت (ماجى) تصرخ ......

★ ★ ★

٦ ـ التوتّر ..

أسطورتها .. أنها قطعة من الشعر .. قطعة من التاريخ ..

★ ★ ★

كان لهب الموقد تحت برّاد الشاى كافيًا كى أرى ما حولى ..

مددت يدى إلى الشمعة التى أضعها دومًا على رخامة المطبخ .. وأشعلتها .. وهرعت إلى الصالة لأرى ..

ومن جيب بذلتى أخرجت المسدس البارد ..

على الضوء الشاحب المتراقص الواعد بالظلال ، رأيتها .. كانت واقفة على الأريكة وقد أحاطت وجهها بمرفقيها .. ونظرة هلع فى عينيها وهى تنظر لى .. هل رأيتم من قبل التماع ضوء الشمعة فى عينين زرقاوين ؟ إنه مرعب !

قلت لها مطمئنًا :

- « لا .. لا بأس .. إن هذا يحدث كثيـ ... »

ثم فطنت إلى أنها ليست خائفـة فحسب .. بـل هـى خائفة منى ! عيناها لا تفارقان المسـدس فى يدى .. إنها تراه للمـرة الأولـى هنـا .. ويبـدو أنهـا استنتجت شيئًا ما ..

- « لا .. لا تقتلنى ! »

نظرتُ إلى المسدس فى غباء .. وغمغمت :

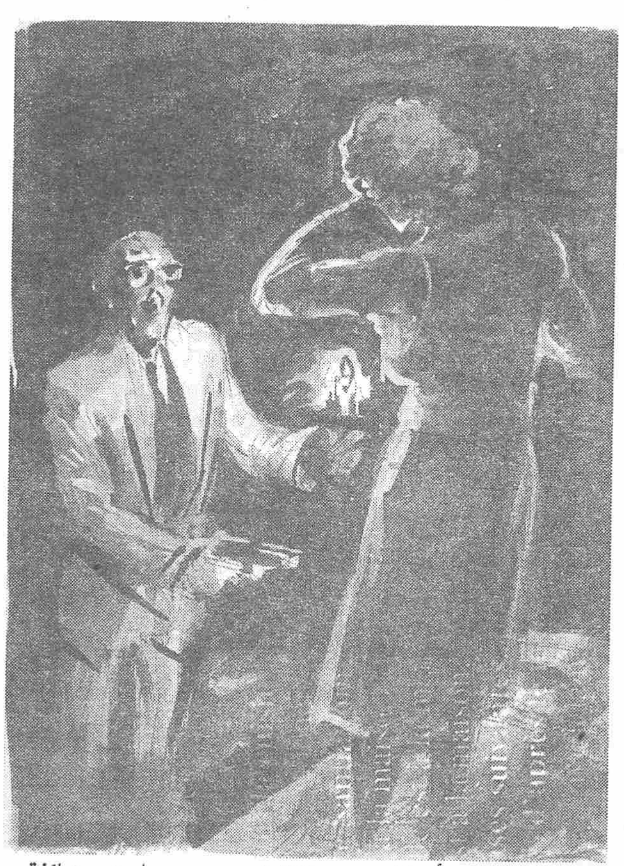
- « آه ! أنت تظنين أننى هو يا (ماجى) ؟ وأننى كنـت ألعب لعبـة بارعـة صبـورًا لأجعلـك تقعيـن فـى الشرك ؟ »

- « أنـ .. أنت قطعت التيار الكهربى ! »

قلت لها فى أسى وأنا أضع المسدس علـى الأريكـة جوارها :

- « هذا هو ما لا أطيق .. لقد دخلت فى دائــرة شكوكك .. ولن يجدى أى اعتذار منك لتبرير موقفك .. حسبت أن ما بيننـا أقـوى مـن (البارانويـا) .. لكنـى كنت مخطئًا .. »

وأدرت لها ظهرى قائلاً فى اشمئزاز وأنا عائد إلـى المطبخ :



ثم فطنت إلى أنها ليست خائفة فحسب .. بل هى خائفة
منى ! عيناها لا تفارقان المسدس فى يدى ..

- « حسن .. هذا هو كل شىء .. خذى المسدس وتولّى الدفاع عن نفسك أو قتلى .. لا يهم .. »

كان هذا كافيًا .....

سمعت صوتها المرتجف ينادينى :

- « (رفعت) ! عُدْ .. »

تظاهرت بأننى غير مهتم ..

- « (رفعت) ! خُذْ مسدسك وعُدْ لتحمينى ! »

واصلت سيرى للمطبخ ..

- « (رفعت) ! عليك اللعنة ! يا عصا المكنسة الصلعاء .. أيها الثعبان الذى يتظاهر بأنه سحلية ! »

كان هذا كافيًا .. انفجارها هذا كاف لتهدئتها ..

وعدت لها وجلسنا على ضوء الشمعة المتراقص .. شعرت برأسها الصغير يغوص فى صدرى ويهتزّ بالبكاء .. يهتزّ ..

- « آ .. آسفة ! »

لم أقل شيئًا .. إن لها الحق كل الحق فيما قالته وحسبته ..

- « (رفعت) .. للأبد ؟ »

- « ماذا ؟ »

ـ « هل ستظل معى للأبد ؟ »
ـ « .. وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى .... »
وفجأة هبت بحركة درامية .. وصاحت :
ـ « صه ! أنصتْ ! ثمة حركة فى غرفة المكتب ! »
وأنا يا رفاق أعرف النساء إلى حدّ ما .. على الأقل أعرف هذه الإنذارات الهستيرية التى يقطعن بها القصص .. لهذا لم أهتم كثيرًا بما تقول ..
لكنى تذكّرت الخاطر الذى جاءنى فى المطبخ منذ ثوان ..
من الأفضل أن نتحقق بنفسنا ..
نهضت معها .. أمسكت بيدها ـ لو تركتها حيث هى لماتت ذعرًا ـ ورحنا نشقّ طريقنا عبر أدغال الشقة ..
أنت تعرف رقصة الظل هذه .. حين يغدو وراء كل ركن سفاح ينتظر .. وخلف كل باب شبح متربص .. وتحت كل مائدة مِسخ مترقب .. قصة (الغرفة الحمراء) لـ (هـ . ج . ويلز) خالدة حقًا .. وتناسب كل كارهى الظلال مثلى ..
لكن لا شىء ......

صوت غريب آت من المطبخ ......

دخلت المطبخ و (ماجى) ورائى ، متخذًا وضع رجال العمليات الخاصة الذين نراهم فى الأفلام الأمريكية .. ظهرى للحائط .. فوهة المسدس لأعلى .. ثم أثب إلى الداخل مثبتًا المسدس بكلتا يدىّ (لو أن المرحومة أمى رأتنى لقتلها الفرح) .. و(ماجى) ترفع الشمعة لأعلى ..

كان الصوت هو صوت براد الشاى الذى جف ما به من ماء ..

أعدت ملأه من جديد .. ثم بحثت حتى وجدت كشافًا صغيرًا .. ورحت به أواصل البحث عن سفاحنا المختفى إياه ..

- « ولكن لماذا انقطع التيار الكهربى ؟ »

- « يا ملاكى .. إن عدم انقطاع التيار الكهربى هو المثير للقلق .. حاولى أن تنسى نظرية المؤامرة هذه بعض الوقت .. »

كنا قد انتهينا من البحث .. لا شىء .. لا يوجد فى الشقة سوانا .. والخوف طبعًا .. رجل وامرأة .. وثالثهما الخوف .....

★ ★ ★

جلسنا نشرب الشاى فى الظلام ..
الصمت واللهاث .. لا أكثر .....
ثم .. طاق طاق طاق !
اتسعت عينا (ماجى) فى هلع .. ليتها تكف عن الذعر قليلاً .. إن منظر ذعرها لمخيف .. هذا أحدهم يقرع الباب فى إصرار ..
تصلب جسدى أنا الآخر .. وتحسست المسدس ..
ـ « (رفعت) .. لا تفتح ! هل ستفتح ؟ »
همست وأنا أعود لاسترخائى :
ـ « يا سلام ! وهل أنا مجنون ؟ إن من يأتى ليزورنى فى الحادية عشرة مساءً ، وفى هذا الظلام الدامس ، لن يخرج عن كونه قاتلاً أو لصًّا أو شخصًا يبلغنى بكارثة .. كلها أسباب لا تغرينى بفتح الباب .. »
وابتسمتُ قائلاً وأنا أرشف الشاى :
ـ « أنا هنا وأنتِ هنا .. وأبى وأمى ماتا ولن أقلق عليهما ثانية .. يعنى هذا أن العالم الخارجى لا يعنينى فى شىء .. فلتزأر العاصفة كما يقول (بوذا) .. »
هنا عادت القرعات أقوى .. طاق طاق طاق !
إنه مصرّ !

ينوى ألا ينصرف قبل أن يحطم جهازنا العصبى .

طاق طاق طاق !

ثم صوت فتاة متحشرج :

- « د. (رفعت) .. أرجوك .. هل أنت هنا ؟ »

فتاة ؟ من هى ؟

- « أنا (نجلاء) ابنة الأستاذ (زكريا) .. أرجوك .. لو كنت هنا افتحْ لى ! »

(نجلاء) على الباب ؟ وفى حالة هستيرية ؟ لا بد أن أباها قد مات .. أو هو عاكف على الموت بنجاح تام ..

كدت أنهض لأستوثق من الأمر ، لكن يد (ماجى) تشبثت بى :

- « لـ .. لا تذهب .. إنها خدعة ! »

نعم .. أنا كذلك ميّال إلى كونها خدعة ما .. فقصص الحمقى الذين فتحوا الأبواب وما كان ينبغى أن يفتحوها تفعم ذهنى ..

لكن الصوت يواصل النداء :

- « د.(رفعت) ! أرجوك .. إن أبى لا ينطق .. أرجوك ... »

هنا صار الأمر أقوى من قدرتى على التحمل .. فنهضت ..

بالطبع لا أريد أن أترك (ماجى) فى الظلام وحيدة .. لكنى سأجد عذرًا لا بأس به فى تفسير وجودها فى شقتى .. لهذا أنا مضطر ..

ـ « هـ .. هل ستتركنى ؟ »

ـ « إن الرجل يموت يا (ماجى) .. سأرى ما هنالك ثم أعود لك .. لن يستغرق الأمر دقائق .. »

ـ « أنت أحمق .. »

ـ « ربما .. لكنى طبيب كذلك .. طبيب أحمق إذا أردتِ .. ولا أجد مخرجًا من هذا العيب الخلقى .. »

وحملت حقيبتى ـ تركت المسدس لـ (ماجى) طبعًا ـ ولحقت بـ (نجلاء) التى وقفت على بابى مشعثة مولولة باكية منهارة مهزوزة ممتقعة .. الخ .. كانت تحمل مصباحًا صغيرًا .. وسألتنى فى رعب :

ـ « لِمَ لَمْ تردّ علىّ مادمت هنا ؟ »

ـ كنت نائمًا أو شبه نائم .. هيا بنا .... »

★ ★ ★

على ضوء الشموع والمصابيح يغدو الأمر أقرب إلى الكوابيس ..

لكن الحالة حالة نزف مخى .. يمكن لكل طفل تمييزها .. لا يوجد ما يمكن عمله فى المنزل سوى شىء واحد فقط .. لا بد من نقله إلى المستشفى لأن حالته أخطر مما ظننت ..

وجوه نسائية مذعورة تحيطنى فى ضوء الشموع .. والأسئلة الغبية المعتادة :

- « هل هى حالة خطرة ؟ هل سيُشفى ؟ لنحاول علاجه فى الدار .. لِمَ لا ؟ هل السبب هو أكلة القنبيط على الغداء ؟ »

فقط الزوجة كانت أذكى من سواها .. هرعت إلى الهاتف وطلبت الإسعاف .. ثم قالت لى مناشدة :

- « طبعًا ستكون معنا هناك يا د. (رفعت) ؟! »

- « طـ .. طبعًا ! »

- « نحن لن نعطلك .. أليس كذلك ؟! »

- « نـ .. نعم ! »

طبعًا لا جدوى من أن أقنعهم أن قدومى معهم لن يفيد بشىء .. لكنه التعاطف .. لابد من إظهاره ..

والويل لك إن تنصلت من الأمر بأعذار لن تُقبل ..

ولكن (ماجى) .. لا بد من إبلاغ هذه البائسة .. هل آخذها معى ؟ مستحيل هل أناديها لتمضى الساعات الباقية هنا ؟ مستحيل .. إذن لا مفر من الذهاب معهم .. ولآمل أن تستقر الأوضاع سريعًا ....

★ ★ ★

استغرق الأمر ساعتين لحسن الحظ ..

ساعتين حتى استقر الرجل فى أحد أسرّة العناية المركزة ، وقاموا بتركيب (المانيتول) وحقن (اللازكس) وكل ما من شأنه أن ينزع المياه من حوض (الأمازون) ذاته ..

يبدو أنه سيعيش .. سيمرّ بأيام كئيبة فى البدء .. ثم يتحسن تدريجيًّا .

والآن حان وقت الفرار .. والانتقال من دور د.(كوخ) إلى دور (شيرلوك هولمز) .. فهناك آنسة مهددة بالقتل فى دارى ..

عدت إلى الدار بعد نصف ساعة أخرى ..

كان التيار الكهربائى قد عاد كضيف طال الشوق إليه ..

صعدت إلى شقتى وفتحت الباب ..

كان جهاز التلفزيون يعمل عارضًا فيلم السهرة الأمريكى .. وكانت بقايا الشمعة قد تلاشت تمامًا وتحولت إلى عجينة بلا معالم .. وكان قدحا الشاى الفارغان على المنضدة .. مع تفاصيل أخرى من التى لا تلاحظها فى الظلام ..

لكن (موكلتى الحسناء) لم تكن هناك ...

تلاشت (ماجى) تمامًا من المشهد ..

هرعت ـ وقلبى يخفق ـ أبحث عنها فى الحجرات كلها ..

ليست هنا .. ولا هنا .. هل تكون قد ؟

أخيرًا وجدتها فى حجرة المكتب .. كانت جالسة على البساط .. وقد تدلّت سماعة الهاتف جوارها تتأرجح ..

كانت دامعةُ العينين ذاهلة .. تنظر إلى قدميها فى إصرار ..

جلستُ على البساط جوارها ، وسألتها فى رفق عن .....

ـ « لقد اتصل بى ! »

ـ « من ؟ الرجل إياه ؟! »

ـ « نعم ... قال لى : واحد ولا ثانى له .. تعرفين عن السابع بغد يوم ! وأغلق الخط قبل أن أقول كلمة واحدة .. »

نظرت لها فى ذهول :

ـ « ولكن هذا معناه ..... »

ـ « معناه أننى لم أكن الضحية السادسة .. ومعناه أنه يعرف يقيناً أننى هنا ! »

★ ★ ★

٧- الضحيــة الســـابعة ..

أسطورتها .. أنها أذكى النساء ..

★ ★ ★

توجهنا معًا فى الصباح لنتصل بإنجلترا ..

لا داعى لإهانة ذكاء القارئ بقول إننا لم ننم لحظـة تلـك الليلــة .. ظللنـا جالسـين علـى الأرائـك نتبـادل النظرات الحيرى .. بضع دقـائق يغفـو فيهـا أحدنـا ثـم يصحو مذعورًا .. فيغمغم شيئًا .. ويعتدل فى جلسته من جديد .. وقد بدا لنا ضوء الفجر بشرى بالخلاص ..

هذا هو حظى .. ليلة كاملة مع (ماجى) فى مكان واحد .. لكنها من أسود ليالى حياتى وأقساها ..

دخلتْ كابينـة الهـاتف وراحـت تتكلّـم .. أمـا أنـا فاسندت رأسى إلى الزجاج ونمت قليلاً وأنـا واقـف .. ولم أدر أننى فعلت ذلك ..

لم أصحُ إلا حين شعرت بها تجذب معصمى برفق ..

- « هيا بنا .. »

وأردفتْ وهى تتقدمنى إلى باب الخروج :

ـ « أنت مرهق حقًا يا مسكين .. »

ـ « أنت كذلك .. لكنك تجيدين إخفاء ضعفك .. »

قالت وهى تركب السيارة إلى جوارى :

ـ « اتصلت بالمفتش (جيرهارد) .. أخبرته بما دار فى المكالمة الهاتفية الأخيرة .. أخبرنى بخبر كنت أتوقعه .. »

قلت لها وأنا أنقل ذراع السرعات :

ـ « (اليزابث) قد ماتت أمس .. »

ابتسمت فى خبث .. وقالت :

ـ « بل (مارى كلفورد) .. هل تذكرها ؟ إن (مارى) جديرة بأن تكون من شلتى .. لقد نسيناها تمامًا .. لكنها كانت جزءًا أساسيًا من مجموعتنا .. بل إن (اليزابث) كانت زميلة لنا أكثر منها صديقة .. هكذا .. إن القاتل يعرف شلتى خيرًا منى .. »

سألتها وأنا أحاول ألا تلتقى عينانا :

ـ « وكيف قتلت ؟ بالرصاص أم رميًا من حالقٍ ؟ »

ـ « صعقًا بالكهرباء .. سلكان عاريان فى بانيو الحمام الملىء .. وهى فيه طبعًا .. إن الوغد لا ينقصه الخيال .. »

ثم اتسعت عيناها ذعرًا ونظرت لى .. وهتفتْ :

ـ « هل تدرك معنى ذلك ؟ لقد كان القاتل فى انجلترا معها .. إذن من هو الذى يلاحقنى هنا بالمكالمات الهاتفية ورسائل التهديد ؟ إن (أندرو) يملك الآن حجة غياب لا بأس بها .. لا يمكن لأية محكمة أن تدينه بقتل (مارى) .. »

ـ « ماذا تريدين قوله ؟ »

ـ « ما فهمته أنت .. إن القاتل يصل إلى ضحيته فى الوقت الذى يريده وبالكيفية التى يريدها .. يصل إليها فى اليابان أو انجلترا أو اليونان أو مصر .. يتواجد فى بلدين فى الوقت ذاته .. إن قاتلاً بهذه الصفات لا يمكن أن يكون من عالمنا .. إنه صياد كونى إذا صحَ التعبير ! »

وأسندت جبهتها إلى راحتها .. وهمست :

ـ « واليوم أكون أنا خاتمة هذا المسلسل الرهيب ! »

★ ★ ★

كان قرارى سريعًا ....

قمت ببعض حركات مناورة لأضلل من يمكن أن يتبعنا بسيارة .. وحين تأكدت أن أحدًا ليس فى

أثـرى ـ على الأقل من البشـر ـ مـلأت خـزان السيارة بنزينًا .. وانطلقت فى اتجاه الخروج من القاهرة ..

إن شقتى قد صارت معروفـة لكـل قتلـة العـالم كمـا يبدو .. إذن تبقى قريتى (كفر بدر) هى أنسب مكـان أدارى فيه (ماجى) ..

إن الأوضاع تنعكس ....

منذ أعوام خرجت من (كفر بدر) لأخبئ فى شقتى كاهنًا من التبت اسمه (هن ـ تشو ـ كان) .. واليوم أفعل العكس تمامًا لأدارى فى قريتى حسناء إسكتلندية بائسة اسمها (ماجى ماكيلوب) ..

إن الطريق طويل مرهق ..

لكن (ماجى) لم تتكلم ..

لم أستطع أن أصارحها بأننى أشكر الظروف التـى جعلتنى ملاذها الأوحد فى العالم .. للمرة الأولى تحتاج إلىّ (ماجى) بقدر ما احتجت إليها طيلة حياتى ..

لقد أفسـدت (مـاجى) حيـاتى تمامًـا .. صورتهـا تطاردنى كلما بدأت مشروع زواج أو خطبـة .. وكنـت أحـاول أن أتحـرر مـن إسـارها لكنهـا كـانت تملـك كــل حواسى وأفكارى .. عندها كان كل شئ يتحطم ..

أجرؤ على القول إن (ماجى) هى سبب سخريتى اللاذعة وسرعة مللى .. لأننى لا أجد ذكاءها وتجددها فى الكون من حولى ، إن (ماجى) هـى سبب كـآبتى وتوحّدى .. وسبب شرودى وتوترى ..

كان علماء النفس يقولـون دومًـا إن ارتبـاط الطفـل الزائد بأمه ؛ يسبب فشله فى أية علاقات مـع الجنـس الآخر حين يكبر .. وقد كانت (ماجى) أُمًّا لى .. أُمًّـا وأُختًا وصديقة وحبيبـة .. وغـدا مـن المسـتحيلات أن أجد سواها .. لأنه لا توجد سوى واحدة فقط ..

إن (ماجى) هى الداء والدواء معًا ...

وها هى ذى الآن بحاجة إلىّ .. بل هـى فـى أعمـق أعماق عالمى .. رأت شقتى .. وتوشك أن ترى أُختى وأخى وقريتى ..

كل هذا حلم .. حلم جميل .. حتى لو صحـوت منـه علـى صوت طلقـات الرصـاص .. فمـوت (مـاجى) لا يقلقنى لأنى ـ حتمًا ـ سأموت قبلها ..

أعرف هذا وأومن به ......

قالت لى وهى ترمق الطريق :

ـ « فيم تفكر ؟ »

قلت وأنا أنظر لها بجانب عينى :

ـ « أفكر فى أنه لا يفصلنى عن السعادة سوى اثنين وثلاثين سنتيمترًا ! »

مدّت يدها وقاست المسافة الفاصلة بيننا .. وغمغمت :

ـ « بل أربعين سنتيمترًا .. إن حساباتك خاطئة دومًا .. »

هكذا فهمتْ دعابتى وردّتْ عليها بهذه السرعة النووية ..

يا ملاكى الصغير ..

لن أحتمل أن يحدث لك شىء .. لن أحتمل ...

★ ★ ★

هو ذا بيتنا الطينى بالقرية ....

نزلت من السيارة ، وتجاهلت بعض النسوة اللواتى جلسن أمام ديارهن ينقين الأرز ويتأملننى فى فضول ..

ـ « (رئيفة) ! »

صحت مناديًا أختى .. وانحنيت ألثم الأطفال الذين التفوا حولى .. فأنا خالهم .. خالهم الذى نسى للأسف

أن يجلب لهم شيئاً .. لم يكن الوقت ولا المزاج يسمحان به .....

ـ « خالى جاء يا أمه ! »

ورأيت (رئيفة) الحبيبة برقتها وجمالها تهرع نحوى لتعانقنى .. لثمت يدى فلثمت يديها .. يدها الطيبة التى رائحتها مزيج من العجين والثوم والبصل والسمن واللبن الرائب .. رائحة دارى .. رائحة الحبّ ..

ـ « لم تقل لى .. إن (طلعت) ... »

ـ « لا عليك .. إننى لست وحدى .. معى فتاة إنجليزية .. ضيفة .. أعنى أنها بحاجة إلى حماية و ... »

إن تفسير الأمر معقد جدًّا .. ورأيت (رئيفة) تحاول أن تفهم .. لكنها لم تستطع .. لم أكن أنوى البقاء مع (ماجى) فى القرية حتى لا يكثر القيل والقال .. كنت أعرف أن (رئيفة) ستحسن العناية بها وحمايتها .. وما لم يكن القاتل من عالم آخر ـ كما بدأت أشك ـ فمن المستحيل على إنسان أن يعرف أن (ماجى) هنا ...

ـ « (رفعت) .. هل هى تلك (الخواجاية) التى

كنت تنوى الزواج منها ؟ لقد بكت أمى أيامها دمًا بدلاً من الدموع .. أرجوك يا (رفعت) .. إن بنات بلدك أولى بك .. »

يا لك من ساذجة رقيقة ! لثمت خدها وقلت :

ـ « لا شىء مما تظنين .. كل ما هنالك أنها أمانة أتمنى لو حافظت عليها ثلاثة أو أربعة أيام .. »

ثم إننى تركتها واقفة حيث هى ، وخرجت من الدار لأحضر (ماجى) من السيارة ..

لكنها كانت قد غادرت السيارة بالفعل ..

وقفت تتأمل أسرة من البط تلهو حول بقعة من الماء الآسن .. وكان البطّ يرمقها فى دهشة عاجزًا عن فهم سرّ فضول هذه السائحة الشقراء ..

وحول (ماجى) رأيت مظاهرة صغيرة .. قوامها الأطفال وعمادها النسوة الفضوليات بأعينهن اللواتى تقطر سمًّا ، وكراهية لا مبرر لهما .. وراح الأطفال يرددون فى إيقاع لا بأس به :

ـ « (الخواجاية) أهيه ! (الخواجاية) أهيه ! »

وراح غيرهم يتقاطر من الأزقة المجاورة .. وحتى ذلك الفتى الذى كان مارًّا مسرعًا على حماره ، توقف

وترجل ليرى هذا السيرك عن كثب ، ولم أكن أنا فى حاجة إلى هذا الاستعراض ..

جررتها من ذراعها .. وهى تداعب الأطفال بحركات مضحكة من وجهها .. جررتها إلى داخل الدار .. وواربت الباب الثقيل ..

- « (رفعت) .. إنهم ظرفاء حقًا ! »

- « إنهم يعتبرونك عرضًا من عروض السيرك .. الرجل الفيل .. المرأة التمساح .. الفتاة الإسكتلندية الشقراء .. ولو أننى تقاضيت قرشًا من كل إنسان يراك لصرت ثريًا .. »

ووقفت أمام (رئيفة) .. امرأتان متقاربتا السنّ .. لكنهما من ثقافتين متباعدتين تمامًا ..

- « (ماجى) هذه (رئيفة) أُختى »

قلتها بالإنجليزية ..

- « (رئيفة) .. هذه هى (ماجى) .. »

قلتها بالعربية ؟

- « (ماجى) ؟ »

سألتنى (رئيفة) مستوثقة وهى تجفف يديها فى خرقة .. وتتأمل ثياب (ماجى) فى انبهار .. أخبرتها أن الاسم هو (ماجى) ..

- « والنبى حلوة ! »

ومدت يدها تصافحها .. ولثمتها على خديها .. (ماجى) تبدو مندهشة لأسلوب التحية هذا .. لكنها تقبلته فى تواضع ..

سألتنى (رئيفة) وهى تقودنا إلى الداخل :

- « وكيف سأكلمها ؟ »

- « كل لبيب بالإشارة يفهم يا (رئيفة) .. إنها ذكية وكذلك أنت .. ثم إن ابنتك (أحلام) فى الصف الثالث الإعدادى .. يمكنها أن تفهم الكثير وتقول لها الكثير .. »

- « ليكن .. »

وصمتت هُنَيهة تبحث عن المعضلة التالية .. ثم سألتنى :

- « وأين تقيم ؟ »

- « يا له من سؤال ! حجرتى طبعًا .. لقد تركتها منذ زمن طويل وأعتقد أن البراغيث لم تعد تقيم فى الفراش أكثر بعد رحيلى .. ثم إنها ستسعد بكل ما تراه هنا .. تأكدى من هذا ... »

ثم أرجو ألا تضعى الكثير من السمن فى الطعام

يا (رئيفة) حتى لا يفتك بها الإسهال .. سأعود بعد ثلاثة أيام على الأكثر .. هل تريدين شئيًا آخر ؟ آه ! هاك ما يلزم من مال لاستضافتها .. هيه ! ألن تأخذيه ؟

كانت ترمق يدى الممدودة بحفنة أوراق مالية فى حياء .. وغمغمت وهى تدير وجهها :

ـ « عيب يا (رفعت) يا أخى .. خيرك سابق .. »

دسست النقود فى يدها قصرًا ، قائلاً بنفاد صبر :

ـ « لا وقت للشهامة يا (رئيفة) .. إن صلة الرحم لا ترغمك على استضافة الإسكتلنديات المذعورات .. المهم أننى لن أوصيك .. لا تدعيها ترغب فى شىء أو تشتِه شيئًا .. وسلامى لـ (طلعت) .. »

ونظرت لـ (ماجى) .. نظرة سريعة لكنها تقول كل شىء ..

ـ « سأعود بعد ثلاثة أيام أو أقل .. »

ـ « للأبد ؟ »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « ستظل تحبنى للأبد ؟ »

ـ « .. وحتى تحترق النجوم .. وحتى .... »

كاد الدمع يغلبنى فهرعت لأركب سيارتى ، عائدًا إلى القاهرة ....

★ ★ ★

عدت إلى شقتى أخيرًا ....

كانت السادسة مساءً حين أولجت المفتاح فى الباب ..

مازال عطرها يفعم المكان .. والكتب التى كانت تطالعها مفتوحة على صفحات متناثرة ...

لم أصدق أن كل هذا حقيقى .. إننى أعيش أروع أيام حياتى وأفظعها ! أليس هذا غريبًا ؟

على كل حال لم يبق لى سوى أن أبقى أصابعى متقاطعة ـ كما يقول الإنجليز ـ وأن أنتظر الليل .. لعل اليوم ينتهى فى سلام ..

قد ينتهى اليوم بمصرع (إليزابث) .. لكنه لن ينتهى بمصرع (ماجى) .. من العسير نوعًا أن يجدها القاتل ما لم يكن شبحًا ....

قررت أن أبدأ بإعادة الكتب إلى مكانها .. والأقداح التى ....

عجبًا .. كان هناك قدحان على هذه المنضدة اتسخا

ببقايا الشاى .. الآن يوجد قدح واحد متسخ .. والآخر به ماء .. بقايا ماء ..

(ماجى) لم تفعل هذا .. كانت تنهض إلى المطبخ لتشرب مباشرة من زجاجة فى الثلاجة ..

يوجد عقب لفافة تبغ غير مألوفة لى .. أراه مدفونًا فى منفضة الرماد هذه وأعرف أننى لست صاحبه ولا (ماجى) ..

لفافة تبغ لها شريط ذهبى أنيق ...

أحدهم كان هنا ...

أحدهم دخن لفافة تبغ .. وبحث عن كوب يشرب فيه الماء فلم يجد لأن الأكواب صنف منقرض فى شقتى .. وهذا اضطره أن يغسل أحد قدحى الشاى ليشرب منه ..

أحدهم كان هنا ....

كان هنا ؟ ربما مازال هنا .....

ثمة دلائل ترجّح الاحتمال الأخير بالنسبة لى ......

إن رماد لفافة التبغ ما زال دافئًا !

★ ★ ★

٨ ـ السقوط .. السبّاك وأشياء أخرى !

أسطورتها .. أنها لا تشيخ أبدًا ..

★ ★ ★

هذه المرة لن ألعب دور رجل العمليات الخاصة فى فيلم أمريكى ردىء .. إن فى هذه الشقة قاتلاً ينتظر .. صحيح أن المسدس معى .. لكنك تحتاج كى تقتل إلى ما هو أهمّ من أداة للقتل .. تحتاج إلى إرادة القتل ..

أنا لم أطلق الرصاص قط على شخص ينظر فى عينى .. ولا أعتقد أننى سأفعل .. ولولا الخطر الداهم الذى أحاط بـ (ماجى) ؛ لما كنت قد فجرت زجاجة الحمض الحارق فى وجه (أنفريد) عند بحيرة (لوخ نس) ..

إذن يبقى حلّ واحد صائب ...

التراجع ببطء إلى الباب .. فتحه .. الخروج إلى السلم .. الصراخ أو استدعاء الشرطة .. المهم ألا أكون وحيدًا ...

ببطء تراجعت إلى الباب ، وأنا أنظر يمينًا ويسارًا ..
هل يأتى من ردهة المطبخ ؟ أم يخرج من وراء الأريكة ؟ أم يثب من باب غرفة النوم الموصدة ؟
هل سيبدأ إطلاق الرصاص .. أو يقول شيئًا ما على غرار : لقد وقعت !؟ هل سيعطينى فرصة كى أفتح الباب ؟
لا يوجد ما يوحى بالحركة .. هل أنا مخطئ ؟
لا .. حاستى تقول إنه هنا .. وتقول لى كذلك : أرجوك أن تسرع بالفرار .. بحق كل غال لديك حاول أن تسرع !
لكن الركض سيصيبنى بالهلع ..
لا أريد أن أفقد تعقلى ..
ها هى ذى يدى على (الكالون) .. أفتحه .. يا لك من صاحب لعين ! الباب مفتوح الآن ..
دلفت إلى الردهة المظلمة خارج الباب ، وأغلقته فى تؤدة .. ثم .. علىّ الآن أن أصرخ أو أركض إلى الشارع ..
لكن .. لماذا لا أغلق الباب بالمفتاح من الخارج ، وأترك المفتاح فى ثقبه ؟ إن هذا سيعطله حتمًا ..

من الصعب على هذا الدخيل أن يهرب من الشرفة أو النافذة .. ليس أمامه سوى الباب .. ولسوف يجعله هذا فى مأزق حقيقى .. هى هى !

وانحنيت على ثقب الباب أدفن مفتاحى فيه .. حين ..

★ ★ ★

يا للهول !

ذراعان قويتان تحملاننى من تحت إبطى .. وصوت لهاث ..

سقط المسدس على الأرض .. وغاب فى الظلام ..

لقد .. لقد كان هناك .. خارج الشقة لا داخلها .. بانتظار فرارى المذعور .. وهأنذا قد وقعت فى الشرك ..

حاولت التملص لكنه كان قويًا حقًّا ..

إنه يقودنى إلى (الترابزين) .. وقبل أن أفهم وجدت جذعى كله يتدلى فوق الحاجز .. مع محاولات مستميتة لإلقائى من علٍ ..

رأيت عويناتى تهوى من فوق .. استغرقتْ دهورًا حتى لمست بئر السلم وسمعت صوت تهشمها ..



ياللهول ! . . ذراعان قويتان تحملانني من تحت إبطى . .
وصوت لهاث ! . .

يده تعالج ساقى محاولة رفعها ..
لكنى لست من هذا النوع الذى يتخلى عن أى شىء فى يده .. أمسك ياقة سترته بمخالبى .. وأنشبت أظفارى فى ذراعه ..
كان تقلصًا كالتصلب الرمّى فى الجثث .. لا يمكن التغلب عليه إلا بقطع يدى .. وسمعت الرجل يسبّ ويلهث بالإنجليزية .. كيف يلهث الناس بالإنجليزية ؟ لا أدرى .. ولا وقت لدىّ كى ....
أفسّر !
تماسك يا (رفعت) .. لا تفقد الوعى .. لن يتمكن منك طالمًا أنت بكامل وعيك .. لا تغب عن الوعى ...
شعرت به يضربنى على رأسى بقبضته محاولاً جعلى أفقد صوابى .. انحنيت مبتعدًا عن قبضته .. ورحت أصرخ بصوت مبحوح :
- « (عزاااات) ! النجدة .. فليأتِ أحدكم ! »
يا للظلام المقيت ! إننى ..
لحظة ضعف واهية .. لكنها كانت كافية جدًّا ..
وحين تخلت يدى عن ثيابه .. شعرت بأننى أفقد توازنى .. وأن ما تحت قدمى هو الخواء .. الخواء لا أكثر ....

لقد استطاع أن يلقينى من حالق !

حتى وأنا أسقط لم أتخلّ عن عادتى فى الملاحظة ..

خطر لى أن أفلام السينما تخرف حين تظهر شخصًا يهوى من أعلى ، وهو يملأ الدنيا صراخًا ويحرك يديه فى كل اتجاه ..

بالنسبة لى كان غرابة ما أراه كافيًا كى أظل صامتًا ..

وأهوى كجلمود صخر خطه السيل من عل ..

و .. فقدت الوعى طبعًا .. لقد حان الوقت لهذا ..

★ ★ ★

كانت هناك ضوضاء غير عادية ، ويد باردة على معصمى تحاول قياس النبض .. والضوء .. كل هذا الضوء ..

يقول الرجل ذو العوينات والشعر الأشيب :

ـ « إنه بخير .. لقد عاد النبض منتظمًا .. »

ويقول الشاب الوسيم الذى يرتدى الثياب الرسمية :

ـ « هل رأيت من قذفك من أعلى ؟ »

ويقول جارى اللواء (محمد حليم) ويداه فى جيبى الروب الصوفىّ :

ـ « لا بأس عليك .. أنت مدين لنا بنجاتك .. »

وبدأت أفهم ..

كان اللواء (حليم) عاكفًا على استبدال مواسير الماء فى شقته .. لهذا ترك السباك عشر مواسير تطل نهاياتها حرّة من فوق (الترابزين) .. ولم يخطر بباله أن هناك من يمكن أن يسقط فى بئر السلم بعد نصف ساعة .. كان بوسع أطراف المواسير هذه أن تعمل فى جسدى ما تعمله الرماح فى خيول المغول .. لكنها أنقذتنى لأنها اشتبكت فى سترتى .. وصرت معلقًا منها كالأرنب ..

هنا بلغت الضوضاء ذروتها ، وغادر السكان شققهم ليروا .. ليروا الكهل (رفعت إسماعيل) معلقًا من قفاه فى بئر السلم غائبًا عن الوعى .. لقد كان منظرًا مهينًا حقًا .. ربما كنت أفضل الموت عليه ..

الأهم هو أنهم رأوا من يثب الدرجات وثبًا فى الطابق السفلى ليغادر البناية .. ولم يكن لدى أحدهم الوقت لمطاردته ...

تمكن السباك ببراعة من ربط جسدى بالحبال .. وجذبنى مع صبيه إلى مرفأ الأمان .. لابد أن المشهد كان شائقًا ..

لشد ما أمقت جذب الانتباه أو لفت الأنظار ! كانت أمنيتى الدائمة هى الموت دون ضوضاء على فراشى .. فلا أحب أن يتحول موتى إلى استعراض من استعراضات (برودواى) يراقبه كل من هبّ ودبّ .. ولا بأس من اصطحاب الأطفال ، وقزقزة اللبّ والسودانى ..

شكرت الجميع على حسن أدائهم ..

وقلت لمحقق الشرطة .. إننى لا أعرف .. (لا أعرف) هذه كانت إجابتى على سبعة أسئلة أو أكثر ..

سألنى فى حنق وقد فاض به :

- « إذن أنت تعتقد أن الرجل رماك من أعلى السلم لأنه يحبّ ذلك ؟ »

قلت له وأنا أحاول النهوض :

- « إن للناس هوايات غريبة .. وعلى كل حال هو أدرى بالسبب .. »

- « حسن .. لكننا نريدك غدًا يا دكتور لنستأنف هذه المحادثة .. إذا كانت حالتك تسمح طبعًا .. »

وصعدت إلى شقتى .. ولم أنس بالطبع أن أجعل

رجال الشرطة يفتشونها بعناية أولاً .. ثم أغلقت بابى بإحكام وأوصدت المزلاج ..

كنت فى حالة يرثى لها .. بذلتى تمزقت .. بذلتى التى اشتريتها خصيصًا للقاء (ماجى) .. ومنظارى تهشم .. يعنى هذا غرامة مالية لا بأس بها هذا بالطبع لو استطعت الوصول إلى محل المناظير ..

إن أجلى لم يحن بعد .. هذا هو كل شىء ....

أجلى لم يحن بعد .. لسوء حظ القاتل .....

نزعت ثيابى .. ارتميت على الأريكة .. رحت ألهث والمشهد يتوالى أمام عينى مرارًا .. نهضت .. تناولت قرص (النتروجلسرين) إياه ..

أين مسدسى ؟ لقد سقط منى عند الباب حين .. لا جدوى من البحث عنه طبعًا .. فلا بد أن رجال الشرطة وجدوه .. أو وجده القاتل .. لا يهمّ .. لن أغادر الشقة مرة أخرى ....

وعادت خواطرى تتدفق ...

لقد قارفت خطأ مميتًا .. افترضت أن سلسلة القتل تتعلق بشلّة (ماجى) .. ونسيت أننى من شلة (ماجى) !

لعلى افترضت أن القاتل يريد الإنجليز فقط .. ونسيت أننا لو أحصينا سبعة من أصدقاء (ماجى) فلا بد أن أكون منهم .. ولو أحصينا خمسة فأنا منهم .. ولو أحصينا واحدًا فأنا هو !

كنت أنا السابع ..

لهذا تسلل الرجل إلى دارى .. وعرف رقم هاتفى .. وترك لى إنذارًا .. لكنى حسبت كل هذا موجهًا إلى (ماجى) ..

الآن يمكننى أن أطمئن وأقرّ عينًا ..

أنا السابع .. فلا خطر على صغيرتى الشقراء الهشة ..

لكن اليوم لم ينته بعد .. إنها العاشرة مساء .

فهل يجرؤ الرجل على إعادة المحاولة ؟ هل يقدر ؟ لا أظن ..

المهم الآن أن أتصل بـ(كفر بدر) لأخبر (ماجى) .. ولكن كيف ؟ إن الاتصال بالقرية يستغرق وقتًا ومجهودًا يفوقان ما أبذله لو مشيت على قدمىّ إلى القرية لأبلغ رسالتى شفويًّا ..

عدت أسترخى فى جلستى وحاولت ترتيب أفكارى ..

من هـو القـاتل ؟ مستحيل أن أعرف ذلـك .. لكنـه قادر على التواجد فى مصر وإنجلترا فى وقت واحد .. أى إنه إنسان فريد من نوعـه وموهوب دون شـك .. كنت أفكر وأنـا أبحـث عـن العوينـات الاحتياطيـة التـى أحتفظ بها .. ها هى ذى ..

أنا من شلة (ماجى) .. فما الذى فعلته هذه الشلة ويوجب القتل ؟ ولماذا تمحور القتل حـول (مـاجى) ؟ يريد القاتل حرمانها ممن تحب ـ فهل يرى أنها حرمته ممن يحب ؟

ثمة ذكرى معينة غير واضحة تتردد فى ذهنى ..

ما هى ؟ كأنك تحاول استرجاع لحن أغنيـة نسيتها تمامًا .. كلمـا حـاولت استرجاعها زارك لحـن أغنيـة أخرى ..

اسكتلندا .. شلتنا .. كان هذا منذ خمسة عشر عامًا ..

ما الذى حدث وقتها ؟

وهنا بدأت أتذكر ..

هرعت إلى المطبخ ، ورحـت أجـوّل فيـه .. أحـاول أن أشحذ خلايا مخى ..

وبدأت الرؤى تتداعى ..

★ ★ ★

٩ - عندما أخطأنا ..

أسطورتها .. أن لها رائحة الكون ..

★ ★ ★

ليلة الكريسماس ..

كنا جميعًا هناك فى (إدنبره) .. أنا و(ماجى) و(تابيثا) و(هيلين) و(ريتشارد) و(جون) و(ألفرد) و(مارى) ..

راحوا يرددون أغنيات عيد الميلاد .. (تابيثا) بوجهها القبيح الشبيه بوجه كلاب (البولدوج) تبعثر دعاباتها المرحة هنا وهناك .. (هلين) ثقيلة الظلّ ترمق ما يحدث فى سخرية صامتة .. (جون) يتابع دعاباتنا بوجه صاف وسيم ملىء بالرقة ..

كان بعضهم ثملاً .. لكنى رفضت فى تهذيب أن أشاركهم لهوهم .. إن عصير الليمون مشروب لا بأس به أبدًا .. و (ماجى) كذلك لم تشاركهم الشراب ويبدو أننا جلسنا جوار المدفأة بعض الوقت ..

قالت لى وشعرها يلتهب بلون النيران :
ـ « للأبد ؟ »
ـ « ماذا ؟ »
ـ « ستبقى معى للأبد ؟ »
ـ « .. وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى .... »

كان (جون) يدرس الطب مثلى .. (ماجى) و(مارى) تدرسان الفيزياء .. الحق أننى لا أذكر دراسة (هيلين) و (تابيثا) جيدًا ..

كانت مجموعة متباينة من العسير أن تفهم سرّ تجانسها .. لكن (ماجى) هى من عرفنى بهم .. ووجدت أنهم لا بأس بهم .. على الأقل كضريبة لا بد من دفعها كلما قابلت (ماجى) ..

وبرغم مقتى للضوضاء والصخب ؛ بدت لى الليلة غير عادية ..

كنت أفضل أن أدخل فراشى لأندس تحت الأغطية الثقيلة ، وأرتدى قلنسوتى الصوفية .. وأقرأ قليلاً ثم أنام كالدبّ ..

لكن وجود (ماجى) كان يعنى أن أغير خططى كلها ...

كان الليل قد انتصف ...

هنا صاح (ريتشارد) بلسان ملتو قليلاً :

- « هلموا نقم برحلة فى السيارة .. إن الليل مازال طفلاً .. »

وتصاعدت الصيحات أن هيا بنا .. هيا بنا ....

كانت سيارة (ماجى) بانتظارنا فى الخارج .. وسط الأنوار المتألقة لأشجار أعياد الميلاد كانت تقف .. وقد ألصقت (ماجى) عليها بالقطن والورق المزركش صورة نصف مجسمة لـ(بابا نويل) أو (سانتا كلوز) كما يسمونه هنا ..

ولا أدرى كيف احتشدنا داخل السيارة نحن الستة جوار (ماجى) التى جلست وراء عجلة القيادة .. ذكرنى هذا بعربات الأجرة بين المحافظات فى مصر بركابها السبعة ...

صاح (ألفرد) بلسان أكثر التواء :

- « ولماذا لا أقود أنا ؟ »

فى حزم قالت (ماجى) وهى تحاول تسخين المحرك :

- « لأنها سيارتى يا (ألفرد) .. ولأنك لا تعى ما تقول .. »

كنت جالسًا جوار النافذة الأمامية ، وفى الوسط كانت (هيلين) .. على حين احتشد الخمسة الآخرون فى المقعد الخلفى ، يصخبون ويحدثون ضوضاء كافية لإيقاظ مقابر (الغفير) كلها ....

وانطلقت السيارة تئن بحملها ....

ـ « فلنذهب إلى (جودفرى) ! »

ـ « إلى (جودفرى) .. إلى (جودفرى) ! »

سألت (ماجى) همسًا وأنا أميل خلف رأس (هيلين) :

ـ « ما هو (جودفرى) هذا ؟ »

قالت فى لا مبالاة وهى تتابع الطريق بعينيها :

ـ « إنه مكان يذهبون إليه ! »

ثم نظرت إلى ساعتها فى قلق .. وغمغمت :

ـ « إنها الواحدة إلا الثلث ... سيقتلنى أبى حتمًا .. سأدور بهؤلاء المخابيل دورة واحدة ثم أعود بهم .. »

لكن الكلام سهل .....

الجليد يتساقط ببطء .. قطع من القطن الأبيض تلقيها السماء على جراح البشرية .. ثم يزداد كثافة .. يبدو أن الطريق يتحول ببطء إلى اللون الأبيض الزلق ...

شعرتُ بانبهار غير عادى .. كأنه حلم جميل .. السيارة الدافئة والبرد القارص بالخارج .. والظلام .. وكل شىء يختلف عما عرفته عن الكون ..

إن الكون شبيه بـ (ماجى) .. فى كل لحظة يتضح أنه يملك شيئًا لم تكن تعرفه عنه .. دائمًا يملك أسرارًا لا يكشف عنها إلا فى لحظة غير متوقعة ..

الرؤية تغدو أكثر عسرًا ..

الصخب يتعالى من المقعد الخلفى ، و(هيلين) تقول شيئًا ما ....

وهنا لمحنا الضوء ..

الضوء المبهر الساطع قادمًا نحونا كشمس مخبولة .. فرملة عنيفة من (ماجى) قذفت بنا جميعًا للأمام .. ثم محاولة لتعديل الاتجاه إلى اليسار ..

لكن هذا مسستحيل ..

الوهج المبهر قادم من كل صوب نحونا ..

- « (ماجى) ! انحرفى يمينًا ! »

لا اااااه !

لكن الموسيقا كانت تغطى على أصوات الصراخ .. صوت الفرامل المجنون .. تغوص سيارتنا فى

الثلج على جانب الطريق .. وتشق طريقها وسط الصراخ وصوت الغناء المنبعث من الراديو :

« هلمى يا صغيرتى .. يمكننا أن نرقص (الروك) ! »

الأشجار تتسابق فى لهفة متنافسة على لذة تحطيمنا ..

« حين ترقصين (الروك) .. أشعر بالجنون ! »

(ماجى) تتحكم فى السرعات والفرملة كما يتحكم (أبوللو) فى عربة الشمس ..

« (الروك) يا صغيرتى .. (الروك) ! »

وأخيرًا تهمد العجلات ، وتقف السيارة كوحش منهك يلتقط أنفاسه بعد صراع مرير ..

ـ « اللعنة ! » ـ يقولها (جون) ـ « كان هذا قريبًا جدًّا .. »

ـ « لا بد أن السائق الآخر مخمور .. »

وترجلنا من السيارة .. وعلى الوهج الذى يضىء المنطقة عرفنا بوضوح أن السيارة الأخرى تحترق ..

كانت مقلوبة .. النار تلتهمها فى شراهة .. والدخان الأسود يتصاعد لعنان السماء .... شعلة من نوع خاص تضىء الظلام ..

- « فلننقذ من بقى حيًّا ! »

قالت (ماجى) فى حزم وهى تشيح بوجهها :

- « لا داعى .. إن الانفجار آت لا ريب .. هكذا يحدث دائمًا فى السينما .. »

لكن شيئًا لم ينفجر .. ودنوت من كتلة الحديد المحترقة مع (ألفرد) .. وتمكنا من فتح الباب الخلفى ، ونجحنا فى إخراج طفلين يولولان كانا فى المقعد الخلفى .. لكن الجالسين فى المقعد الأمامى كانا بعيدين عن متناول أيدينا .. ثم إن أى طفل كان يستطيع معرفة أنهما ماتا ....

- « يا لها من مأساة ! »

كانا توءمين جميلين .. قدرت أنهما فى العاشرة من العمر .. وكانا يرتجفان ويبكيان .. لكننا أبعدناهما عن مسرح المأساة ..

بعد قليل جاءت عربة الشرطة .. جرى تحقيق سريع .. لم ينس الضابط أن يجعل (ماجى) تسير على خط رسمه على الأرض وذراعاها مفرودان .. كان يريد التأكد من أنها ليست مخمورة .. ولم تكن ...

شهود العيان الذين كانوا وراءنا أجمعوا على أن السائق كان يسير فى الطريق المعاكس بسرعة جنونية .. واحد آخر من ضحايا الخمر على الطرق السريعة ..

اسمه (نورمان ماكليود) .. محاسب .. له زوجة وثلاثة أطفال .. طبعًا لا داعى للقول إن زوجته وطفلته ماتتا معه ..

لقد كانت مأساة .. لكن لم يكن لنا ذنب فيها ..

وأجرى التحقيق .. وسألوا كل وحدا منا عن ظروف الحادث .. ثم انتهى الأمر .. فلم يبق منه سوى ذكرى قاسية ظلت تزور (ماجى) عامًا كاملاً .. وجعلتها تبتلع عشرات من أقراص (الفاليوم) ..

انتهى الأمر ...

لكننا ارتكبنا جميعًا خطأً جسيمًا ..

لم يحاول أحدنا معرفة مصير التوءمين .. أين ذهبا ؟ ماذا فعلا وماذا ظنا بنا ؟

لو أنهما حيّان اليوم .. فمعنى هذا أنهما شابان ناضجان ..

شابان حُرما ممّن أحبّا .....

شابان يعرفان المتسبب فى هذا الحرمان ....

★ ★ ★

لماذا لم يخطر لنا هذا الخاطر من قبل ؟

لأننا لم نعتبر أننا مذنبون لحظة واحدة .. لكن من قال إن التوءمين اعتبرانا غير مذنبين حقًا ؟

إنها فكرة لا بأس بها .. لكنها تحتاج إلى برهان ..

يسهل على (سكوتلانديارد) معرفة مكان التوءمين الآن .. وبعدها سيكون كل شىء سلسًا كقطعة من الكعك ..

يجب أن أتصل بـ (ماجى) فورًا ....

هنا دقّ جرس الباب ....

دق قلبى بذات الإيقاع .. كلا .. لن أفتح .. لكن لا مانع من التأكد من شخص القادم ..

- « من ؟ »

قلتها بصوت بوليسى وأنا أقف وراء الباب .. وسمعت الصوت المألوف :

- « هذا أنا يا (رفعت) .. »

- « (عزّت) ؟ ماذا تريد ؟ »

- « إننى قد وجدت مسدسك .. هلا فتحت الباب ؟ »

ـ « حسن .. لحظة واحدة .. »

ومـددت يـدى إلـى المـزلاج أفتحـه .. إن وجـود المسدس معى يسرّنى حقًا ..

وكان هذا عملاً أحمق بالطبع ....

★ ★ ★

١٠ ـ كشف الأوراق ..

أسطورتها .. أنها تملك مفاتيح روحى ..

★ ★ ★

فتحت الباب لأرى وجه (عزّت) الممتقع المألوف .. وكدت أقول شيئًا .. لكن جسدًا ضخمًا ظهر على المسرح فجأة .. وكان يحمل مسدسًا فى يده ...

أدركت أنه كان يقف بعيدًا بانتظار لحظة انفتاح الباب ..

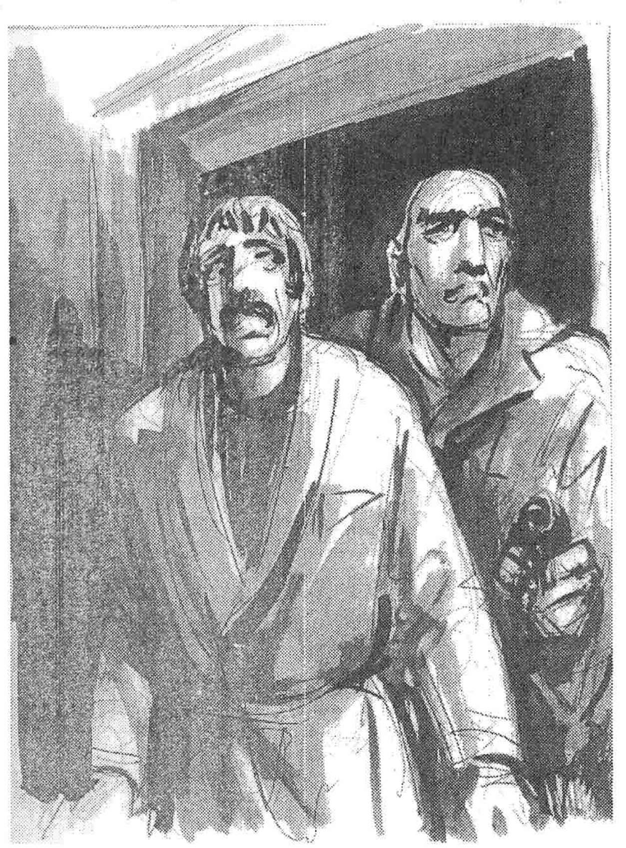
ورأيت المسدس مصوبًا إلىّ قبل أن أرى حامله وقال قائل بالعربية :

ـ « لحظة يا سيدى .. لا تحاول غلق الباب ! »

لن أغلقه طبعًا .. فمن الممكن دائمًا اختراقه بطلقة .. كما أننى لن أترك (عزت) وحيدًا فى هذا الموقف ..

ورأيت الرجل يقتاد (عزت) إلى الداخل .. ثم يتبعه ويوصد الباب خلفه بإحكام ..

قال (عزت) فى إحباط وهو ينظر إلى الأرض :



وكدت أقول شيئًا . . لكن جسدًا ضخمًا ظهر على المسرح فجأة . . وكان يحمل مسدسًا فى يده . .

ـ « لقد أرغمنى يا (رفعت) .. هددنى بالمسدس كى أقرع بابك وأقول ما أقول .. »

ـ « لا عليك يا (عزت) .. إنه أسلوب اقتحام الحصون العتيد .. أسلوب حصان طروادة .. لكنى معجب بإجادة هذا الوغد للعربية .. »

ثم أشرت إلى الأرائك أدعوهما للجلوس :

ـ « تفضلا بالجلوس .. لا تقلق يا مستر (ماكليود) .. إن تأخير قتلى نصف ساعة لن يضرّ بعدالتك الشعرية هذه ! »

امتقع وجهه .. ونظر لى مدهوشًا ..

لقد كنت على حق .. تأكدت الآن فقط من صحة نظريتى .. ولكم أكره أن أكون محقًّا فى كل مرة لكن هذا هو قدرى !

ـ « هـ .. هل تعرفنى ؟ »

ـ « طبعًا .. إن (سكوتلانديارد) تعرف كل شىء عما حدث ... »

وللمرة الأولى تأملته .. كان وسيمًا له ملامح رجولية قوية .. شعر رأسه حليق على خلاف الموضة الشائعة .. متين البنيان .. يوحى بأنه فى

العقد الرابع من العمر لا الثالث كما هو مفترض ..

وفى يده مسدسى الذى سيجيد استعماله بالتأكيد .. فهو يملك الرغبة والهواية ..

قلت له وأنا أفكر فى سبيل لكسب الوقت :

ـ « كيف عرفت أننى لم أمت ؟ »

ـ « رأيتك وأنت تهوى وتشتبك فى المواسير .. لم يكن لدىّ وقت كاف لإسقاطك .. لهذا عدت .. »

ـ « يبدو لى أنك مصمم على إنهاء الأمر اليوم .. »

نظر إلى ساعة الحائط .. ثم لساعته .. وغمغم :

ـ « حقًا .. أمامنا ثلث ساعة بعده نغدو ـ عمليًا ـ فى الغد . »

هنا صاح (عـزّت) متوسلاً وهو ينهض من الأريكة :

ـ « هلا شرح لى أحد ما يحدث هنا ؟ يبدو أنكما متعارفان تمامًا .. إذن اسمحا لى بالانصراف .. »

ـ « اجلس يا سيدى .. »

قالها الرجل فى رزانة .. لكن معنى العبارة واضح جدًا .. فلم يجد (عزت) سوى الجلوس وهو (يبرطم) بكلمات غير مسموعة ..

كان صوت الرجل رخيمًا مهذبًا .. وكانت لغته العربية رديئة حقًا من ناحية النطق .. لكنها ممتازة من حيث انتقاء الكلمات وترابط الجمل ..

ـ « يمكنك استعمال الإنجليزية لو أردت .. »

ـ « أفضل العربية .. فهى تجعل من محادثتنا تدريبًا شائقًا .. »

ـ « وأين تعلمتها ؟ لابد أنك قضيت فترة لا بأس بها فى بلد عربى .. »

ـ « بالتأكيد .. »

قالها فى غير اكتراث وهو يعالج ترباس المسدس .. ثم أردف وهو يتأملنا :

ـ « لنبدأ إذن ! »

★ ★ ★

قلت له فى حنق بالإنجليزية :

ـ « لحظة ! من أبسط حقوق المقتول أن يعرف لِمَ قُتِل .. من الطبيعى أن تثرثر قليلاً وتتشفى فينا .. أما إن تقتلنا هكذا دون كلمة فهذا لايبدو لى إنسانيًّا .. »

ابتسم ابتسامة مدهوشة كأنما يتساءل : أى مخبول هذا .. ثم هزّ رأسه قائلاً :

- « هلمَ .. اسأل عمَ تريد .. »

كنت أدرك أن حياتنا تتوقف على كياستى فى اللحظات القادمة ..

لست من هذا الطراز هادئ الأعصاب أمام الخطر .. لكنى كنت أعرف ما يطمئننى بصدد هذه اللحظات ..

قلت له وأنا أتجه للمطبخ :

- « هل لى فى إعداد بعض الشاى ؟ إنك لم تقتلنى لذلك .. »

صوّب المسدس نحوى فى حيرة .. وغمغم :

- « لا .. اجلس حيث أنت ! »

- « لا تكن طفلاً .. إنك الأقوى هنا .. فالعب دور (الجنتلمان) حتى النهاية .. »

قلتها وأنا أُضىء المطبخ .. وأملأ براد الماء .

لم يجد ما يقول .. بدا له أنه من السخف أن يكون عصبيًا إلى هذا الحدّ .. من ثَمّ أشار إلى (عزت) كى يتجه للمطبخ .. ووقف على الباب - على مسافة مأمونة - يراقبنا فى أثناء إعداد الشاى دون أن تطرف عيناه ..

هتف (عزّت) فى عصبية ، وقد بدأ (الكورتيزون) يهبط فى دمه :

- « شـاى فى هـذا الوقـت ؟ لقـد جننـت تمامًـا يا (رفعت) ! ألا بد مـن أن تدخـل القبر بمعدة مـلأى بالشاى ؟ »

وراح يولول فى هستيريا .. لكنى واصلت ما بدأته ..

قلت للرجل الممسك بمسدسه :

- « حسن .. سأبدأ من البدايةِ .. أنت أحد التوءمين (مـاكليود) .. لقـد خسرت والديـك وأختـك فـى ذلـك الحـادث المريـر ليلـة (الكريسـماس) .. لا أدرى مـا حـدث بعدهـا .. ربمـا أرسلوكما لأحـد الملاجـئ .. ربمـا تولـت أمركمـا إحـدى الجـارات .. المهـم أنكمـا كبرتما معًا دون أسرة ..

« لا أدرى لماذا انتظرتما كل هـذه السـنين .. ربمـا حتى تصل (ماجى) إلـى سن والدكمـا حيـن مـات .. وربما حتى تمكنتما من جمع المعلومات عنا .. المهـم أنه قسم مقدس أقسمتماه .. كنتما تؤمنـان أننـا حفنـة مـن الشـباب المسـتهتر الـذى أفـرط فـى الشـراب ، وانطلق بسيارة مجنونة ليدمّر كيان أسرة .. أ .. هل لك فى بعض الشاى ؟ بالطبع لا .. إنهـم يلعبـون هذه اللعبة دائمًا ويدسون سمًّا للمهدّدِ .. شاى يا (عزت) ؟ بالطبع لا .. إن معدتك لا تتحمل الكلمة ذاتها ..

« كنت أقول إن إيمانكما بأننا سبب تعاستكما لم يتزحزح .. كانت له ذات منزلة العقيدة الدينية .. ولا بد أنك أقسمت ذات ليلة أنت وأخوك على الانتقام ..

« كيف عرفتما ما عرفتماه ؟ ربما من سجلات الشرطة .. ربما صار أحدكما شرطيًا أو موظف إحصاء .. المهم أنكما قرأتما محضر الحادث ، وعرفتما أسماء ركاب السيارة .. وأن قائدتها تدعى (ماجى ماكيلوب) .. هى التى صدمت سيارة أبيكما . وهى التى رفضت أن تتفقد الحطام المحترق .. ولو لم أخف أنا و (ألفرد) لانقاذكما لكنتما طعمًا للنيران ..

« إذن المطلوب جعل (ماجى) تتعذب .. يجب أن ترى كل من تحب يرحلون بعيدًا .. يجب أن تظل قلقة خائفة .. لا تدرى هل يكون دورها بين السبعة أم لا ..

« كان مصرع (جون مكارثر) سهلاً .. لعبة غاز العادم يمكن تنفيذها ببساطة (هيلين بلاكلى) أيضًا ماتت محترقة ولم تكن هذه مشكلة .. المشكلة الحقيقية هى موت (تابيثا) فى اليونان فى سجنها .. ربما رشوتما الحراس .. ربما اتفقتما مع سجينة أخرى معها فى ذات السجن ..

« بعد هذا مات (ألفرد) .. كنتما مخطئين فى قتله .. فهو منقذكما .. لكنه مات ببساطة فى حوض السباحة .. ثم مات (ماكنرى) فى اليابان مشنوقًا لا بد أن أحدكما لحق به هناك .. واضح أن الوالد قد ترك لكما ثروة لا بأس بها ..

« ثم جاء دور (مارى) .. اللعبة الحقيقية كانت هنا فى مصر .. فأحدكما عرف أن (ماجى) فرّت إلى مصر .. ولحق بها هنا .. بينما بقى الآخر فى انجلترا ليقتل (مارى) .. هذا أعطانا انطباعًا بتواجد القاتل فى كل مكان ..

« كان من السهل أن يعرف عنوانى .. لا بد أنها كانت صدمة رائعة أن يجد أن ضحيته السابعة ـ أنا ـ موجودة مع (ماجى) فى مكان واحد .. ولكن كيف عرفتم رقم هاتفى ؟ »

ابتسم فى هدوء وهو يرقب براد الشاى .. وغمغم :

ـ « خمّنْ ! »

ـ « لقد أخبرت (ماجى) (سكوتلانديارد) به .. لو كان أخوك شرطيًّا كما افترضنا آنفًا فمن السهل عليه أن يعرف الرقم ، ويبلغك به فى مصر .. هكذا

كـانت كـل تحركـات (مـاجى) تحـت الرصـد .. ربمـا باستثناء المكان الذى أخفيتها فيه الآن ..

ولكن عندى سؤالاً بسيطًا :

لماذا لم تحرماها من أبيها السير (ماكيلوب) ؟ »

ـ « كان العجـوز علـى رأس القائمـة .. لكنـه مـات قبل بدء التنفيذ .. »

ـ « مفهوم .. مفهوم .. إن (ماجى) مقطوعة من شجرة كما يقول المصريون .. وما دامت لا تملك أسرة فلا بأس بتدمير أصدقائها .. إن العدالة الشعرية تقضى بإبادة كل من كانوا فى السيارة فى تلك الليلة ..

« أراهن على أنكما لم تصدقا المحضر الذى يبرئنـا قط .. حسبتما أن هذا نتيجة لثراء ونفوذ أبيها .. الابنة تلهو بسيارتها ثملة ، والأب يسـدّد الفواتـير ويشـترى الضمائر.. أليس كذلك ؟ »

ونظرت له فى تحدّ وقلت :

ـ « أنتما تعرفان أن أباكما هو المخطئ .. هو الذى قاد السيارة بأسرته وهو ثمل لايفقه ما يقول .. لكنهـا المكابرة .. »

قال بلهجة منذرة من بين أسنانه :

ـ « اخرسْ ! »

ـ « ليس هذا كل شىء .. أنت أحمق كذلك .. جئت الليلة كى تنال منى وانتظرتنى طويلاً بعد اقتحام الشقة .. كانت خطتك هى إلقائى من أعلى لهذا لم تحمل مسدسًا معك ..

لكن عثورك على مسدسى جعلك تقرر تغيير أسلوب القتل ..

لكنك أحمق ـ كما قلت ـ فلم تحاول التأكد من وجود طلقات بالمسدس قبل أن تهددنى به ؟ »

صاح فى جنون وهو يمدّ يده لمظروف الطلقات :

ـ « يا للشيطان ! أنت تمزح ! »

ـ « ليس هذا فحسب .. » ـ قلتها وأنا أدير ظهرى له ـ « .. أنا اكتشفت ذلك بنفسى عندما عدت للشقة .. لكنى افترضت أن المسدس الفارغ يثير الرعب الذى يحدثه المسدس الملىء .. ثم إنك تركتنى أعدّ الشاى .. وهذه حماقة لا توصف لأن .... »

كان يحاول تفحص المسدس ، وكان هذا ما أريده .. لحظة فقدان للتركيز كانت كافية كى أقذف ما فى البراد من ماء مغلى فى وجهه مباشرة .. كانت

إصابة موفقة .. وأصدر صراخًا كصراخ أسد يذبحونه فى أحد مطاعم ألمانيا التى تقدم الأسود (لو كان هذا صحيحًا) ...

وهنا صحت فى (عزّت) وأنا أركض إلى الباب :

ـ « هلم يا (عزّت) ! فلنفرّ ! »

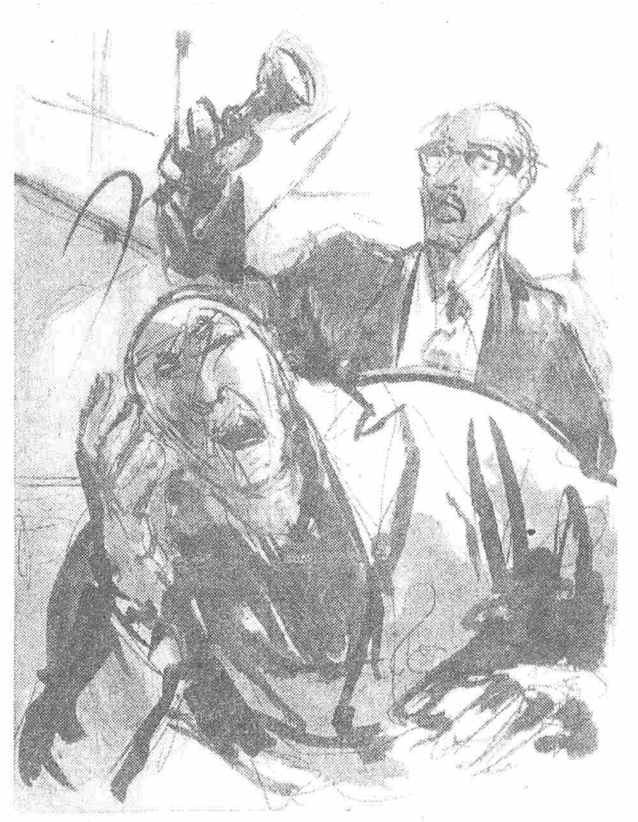
لم يكذب (عزت) خبرًا .. أما أنا فوجدت من واجبى أن أقوم بعمل أخير على سبيل المجاملة .. التقطت يد الهاون التى أضعها فوق رخامة المطبخ ، وهويت بها على يا فوخ الرجل .. الرجل الذى لم يعد يرى ..

كليك ! كليك ! كليك !

رصاصات وهمية لا حصر لها تنطلق من يده المتقلصة على الزناد ..

رصاصات كان المفترض أن تمزقنى إربًا ..

لكنه لم يسقط أرضًا .. ورأيت أن كل هذا كافٍ جدًّا .. فهرعت إلى الصالة خرجت إلى السلم .. وأغلقت الباب خلفى .. لحسن الحظ أن المفاتيح فى جيبى .. أحكمت إغلاق الباب من الخارج ورحت أتعثر عبر درجات السلم .. كان الجيران جميعًا يقفون خارج



التقطت يد الهاون التى أضعها فوق رخامة المطبخ ، وهويت بها على يافوخ الرجل . .

شـققهم .. لقـد كـان صـراخ (عـزت) كافيًـا لاخـتـراق حـاجز الضـوء ذاتـه .. وسـمعت مـن يقـول إنــه أبلــغ الشـرطة .. قـابلنى (عـزت) لاهثًـا .. فعـانقنى وقـال ولعابه يغمر وجهى :

ـ « منــاورة رائعــة .. كنــت أعـرف أن المسـدس محشو لكنك خدعته ! »

ـ « بالعكس يا (عزت) .. المسدس فارغ بالفعل .. ما كنت لأجد الأعصاب التى تسمح لى بهذه المنـاورة لو لم أعرف أنه لاقتل هنـالك .. وعلـى كـل حـال أنـت مدين لشرود ذهنى بحياتك ! »

كلام كثير قيل حتى حضر رجال الشرطة أخيرًا ..

سألنى الضابط الوسيم إياه وهـو يصعد فـى الـدرج مارًا بنا :

ـ « تبدو لى مصممًا على الموت الليلة .. هل أنــت واثق أنه نفس الشخص ؟ »

ـ « لا أدرى .. لكنها ستكون مصادفة غير عاديـة لو قرر اثنان قتلى فى ليلة واحدة .. »

وانتظرنـا .. انتظرنـا سماع صـوت المعركـة وهبـوط رجال الشرطة بأسيرهم ، مكبلاً يقـاوم كثـور بـرّى .. ويتوعدنا بالثبور ..

لكننا لم نسمع شيئًا .. لا شئ على الإطلاق ..

وبعد دقائق رأينا رأس الضابط يطلّ من أعلى ويتساءل :

- « هل تعلمان ما يوجد فى الشقة ؟ لا شئ على الإطلاق ! لكننا وجدنا رسالة كتبها لكما .. كتبها بالإنجليزية .. يقول إنه (نورمان ماكليود) الأب ذاته .. فما معنى هذا ؟ يا لك من طفل ! إنك ترتجف كمن رأى شبحا ! »



الخــاتمة

حين عدت للقرية : كان بيتنا هو أول مكان قصدته ..

قابلت (رئيفة) على الباب فعانقتها .. وقلت لها إننى جئت لآخذ (ماجى) قالت لى وهى تصحبنى إلى الداخل :

ـ « أوكاى O.K ! ولكن لا بد أن تتناول الغداء معنا .. »

أصابنى الذهول .. ودخلت وراءها متوجسًا ..

كانت (ماجى) ـ ابنة السير (ماكيلوب) ـ ترتدى منديلاً بـ (أوية) ، وجلبابًا من جلابيب (رئيفة) .. لا بأس بهذا .. لكن الأسوأ لم يأتِ بعد .. ..

الأسوأ هو أنها كانت جالسة على مقعد صغير ، وقد أراحت فخذها على عنق أوزة .. وراحت تدسّ الحبوب فى فمها ..

أشرق وجهها حين رأتنى .. وهتفت فى مرح :

ـ « مرحبًا بك .. صبرًا .. فقد انتهيت من (تزغيط) هذه الأوزة ! »

(تزغيط) ؟ قالتها بالعربية طبعًا وسط عبارتها الإنجليزية .. ثم إنها رفعتْ الأوزة من تحت جناحيها كأى فلاحة محترفة ، وأطلقت سراحها .. وإلىَ خفّت ماسحة يديها فى جلبابها .. فقلت لها :

ـ « أراك قد تأقلمت كثيرًا .. »

ـ « جدًّا ! لقد أحببت كل شىء هنا .. إنه العلاج النفسى الذى لم أجده فى كل عيادات شارع (هارلى) .. »

ثم نظرت إلى (رئيفة) وسألتها بعربية رديئة جدًّا :

ـ « هل .. الخبز .. جيد ؟ »

نظرت لى (رئيفة) بدورها .. وابتسمت فى فخر وقالت مفسرة :

ـ « لقد أتقنتْ الخبيز تمامًا .. وهى تمضى ساعاتها أمام الفرن وتحاول تعلم كل شىء .. بنت بلد حقيقية .. »

قلت لـ (ماجى) وأنا أكتم ضحكتى :

ـ « يبدو أنك قابلة للإفساد بسهولة .. »

ـ « هن كذلك تعلمن منى الكثير .. »

انتحيت بها جانبًا ، ورحت أحكى لها ما حدث بالتفصيل ..

اتسعت عيناها وراحت تصغى .. وشيئًا فشيئًا بدأت تفقد مرحها .. لقد كان ما أقول غريبًا إلى حدّ لا يصدق ..

قلت لها نظريتى بخصوص التوءمين ، فقالت وهى تبتسم بمرارة :

ـ « هذا غير وارد .. فالتوءمان ماتا بعد أعوام فى أحد الملاجئ .. يبدو أنهما كانا مصابين بمرض خلقى ما .. »

ـ « كنت تعرفين هذا ؟ »

ـ « بالطبع .. إننى لم أنس ضحاياى قط ؟ »

عدت أواصل سرد قصتى إلى نهايتها ..

قالت لى فى شىء من الراحة بعد أن انتهيت :

ـ « هكذا .. هذا هو ما توقعته .. »

ـ « توقعت أن الأب يطاردك ؟ »

ـ « لِمَ لا ؟ إن نظرية التوءمين المنتقمين لا بأس بها .. لكنها مفتعلة .. لا أحد يستطيع العثور على سبعة أشخاص بعد كل هذا الزمن ، ويفتك بهم بهذا النظام وهذه الدقة .. هذا يحدث فى الروايات البوليسية .. لكنه عسير جدًّا فى الواقع .. كنت أشعر

أن الأمر خاضع لقوى ميتافزيقية معينة .. وكنت على حق .. »

- « (ماجى) .. هل تعتقدين حقًا أن شبح الأب عاد بعد كل هذه الأعوام ليقتل من تحبين ؟ وينتقم منك لتدمير أسرته بأكملها ؟! »

مطت شفتها السفلى فى تفكير .. ثم غمغمت :

- بالتأكيد .. »

- ولماذا انتظر كل هذا ؟ »

- « حتى أكون أنا فى ذات السن التى مات فيها .. وعلى كل حال لقد كان انتقامه بارعًا .. كاد يوصلنى إلى الجنون ولا مراء .. »

ثم باشمئزاز أضافت :

- « إنه عنيد .. يأبى الاعتراف بالحقّ .. »

قررت أن أسألها السؤال الذى كنت أهاب التلفظ به :

- « هل سيواصل مهمته ؟ »

- « لا أعتقد .. وآمل أن أكون محقة .. معظم الأشباح تكفّ عن الإزعاج بمجرد أن يعرف الآخرون هويتها وسرّ إزعاجها .. وهو قد أنهى انتقامه ..

فى الغالب اكتفى بما فعله معك ، لأنك رجل طيب مثابر .. ثم هو ـ حتمًا ـ يعرف أنك أنقذت ابنيه من الحطام المحترق .. »

ـ « (ألفرد) فعلها .. لكن هذا لم يشفع له .. »

ـ « ثمة نظرية تقول إن (ألفرد) فقد وعيه فى حمام السباحة وكان هذا سبب غرقه .. من يدرى ؟ ربما لم يغرقه الشبح واكتفى بالظهور أمامه ، وكان هذا كافيًا ليفقد وعيه ويغرق .. »

ـ « وددت لو أتكلم بذات الثقة .. »

نظرت لى بعينيها الزرقاوين الصافيتين .. وهمست :

ـ « إن حسى الداخلى لا يخطئ .. لقد عاودتنى الطمأنينة من جديد .. ومعنى هذا أن الكابوس قد انتهى .. (نورمان ماكليود) لن يعود .. »

ثم نهضتْ وجذبت ذراعى هاتفة فى مرح :

ـ « هلم لنر ما قمت به فى الدار ؟ »

وقالت كلمة (الدار) بالعربية كما ينطقها المصريون ..

★ ★ ★

كنا واقفين فى المطار بانتظار رحلتها ..

لم أصدق لحظة واحدة أنها عاشت معى فى عالمى

كل هذه الأيام .. ولم أصدق ـ بالأحرى ـ أن كل هذا سينتهى من جديد ..

كنت أغالب دموعى .. لكن زجاج عويناتى اكتسى بضباب كضباب (لندن) فى يومٍ خريفى كئيب ..

ـ « (رفعت) .. لا تكن طفلا .. »

قلت لها وأنا أتمخط :

ـ « ألن تغيرى قرارك ؟ »

ـ « نعم .. قلت لك أن أجمل ما فى علاقتنا هو أننا متباعدان ، ومن عالمين مختلفين .. ومهما امتد الزمن يعرف كل منا أن الآخر يحبه حقًا .. يحترمه حقًا .. يقبل الموت من أجله حقًا .. إن زواجنا يعنى المخاطرة بهذه الصلة الروحية الرائعة ، التى قد تتحول إلى لعنات متبادلة .. »

ـ « ولكن ... »

ـ « صدقنى .. » ـ قالت وهى تمسك بيدى مشجعة ـ « .. إن ما يجعل القمر جميلاً هو كونه بعيدًا .. فلو دنونا منه لوجدناه مليئًا بالحفر والتجاعيد كوجه مجدور .. أنت لا تعرف عيوبى .. لكنى لن أدعك تقترب إلى حدّ رؤيتها .. »

ـ « تعرفين عيوبى كلها .. »

ـ « أعرفها .. لكنها حتمًا أكثر مما أظن .. »

ثم وضعت منظارها الأسود لتعود إلى ذات الشخصية الغامضة المغلقة :

ـ « ومهما طال الزمن فسيعرف كل منا أن الآخر يحمل له ذات العاطفة وذات الذكريات .. أنا لن أسمح لك بأن تملنى أبدًا .. »

وشكرتنى على ما فعلته من أجلها فى هذه الزيارة ..

وسمعنا مكبر الصوت ينادى ركاب الرحلة فتهيأتْ للرحيل .. ولم تنس أن تسألنى وهى تلف حمالة حقيبتها على كتفها :

ـ « للأبد ؟ »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « ستكون ملكى للأبد ؟ »

ـ « وحتى تحترق النجوم كلها .. وحتى ...... »

لكنى لم أكمل العبارة الأخيرة كالعادة ..

كنت أبكى كطفل تركته أمه وحيدًا فى الدار ..

★ ★ ★

انتهت هذه القصة ..

وحسبت أننى سأمر بفترة هدوء لا بأس بها ..

لكنى كنت كالعادة واهمًا .. وكان هناك (رفعت إسماعيل) آخر يتحين الفرصة كى يعلن عن وجوده .....

ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط
الغموض والرعب والإثارة

● صدر من هذه السلسلة ●

رقم الإيداع : ١٦٠٦